بذل الذات

القمص

بيشوي كامل

مارجرجس سبورتينج

القسم الأول
المبادئ الأساسية لبذل الذات

الفصل الأول
من العدل أن نبذل ذاتنا لله
المقالة الأولى
الله مبدأ الأشياء كلها

بذل الذات لله يعنى تسليم جسدنا وروحنا إليه، والتخلي له عن كل قوانا ونزاعاتنا ومشاعرنا ورغباتنا ومخاوفنا وآمالنا ومخططات مستقبلنا، غير تاركين لنفسنا سوى الاهتمام بمحبته.

بذل ذاتنا لله يعني أن ننسى أنفسنا، ونضع في قلب يسوع كل شواغلنا واهتماماتنا ومشاكل حياتنا اليومية الكثيرة، ونَكِلَ إلى عنايته كل مصالحنا مكلفينه بتدبير كل شيء وتدارك كل نقص.

بذل ذاتنا لله يعنى أن نعدل عن الاهتمام بأنفسنا ولا نفكر إلا بالله، وأن نقف ذواتنا للأعمال التي تؤول إلى مجده، وأن نبسط بحسب إمكاناتنا سلطان الحق والخير، ونتفانى في خدمة أخوتنا حبًا بالله ونساعد ونعلم ونعزى، وخصوصًا أن نهدي الغير ونقودهم إلى الله.

بذل الذات يقوم بالخضوع الدائم للمشيئة الإلهية وسط كل الحوادث والتقلبات، والإذعان الساذج البنوي لمشيئات الآب السماوي، والاستسلام التام للتدابير التي ترتضيها العناية الإلهية.

طوبى للنفس التي أسلمت ذاتها ليسوع بسذاجة، لأن يسوع بدوره يهب لها ذاته. إنه يستولي على النفس التي تحبه يأخذ بيده مصالحها ويريحها من الهموم التي تشغلها، ويحميها من كل أعدائها، ويقيها كل الأخطار ولا يطلب منها مقابل ذلك سوى أن تعطيه قلبها.

هكذا يكون العطاء المتبادل بين يسوع والنفس، عطاء كله محبة. ما أجمل هذا العطاء المتبادل، إنه حياة حب تجتذب النفوس الطاهرة والقلوب الكريمة.

ما أسعد وجودًا يكفر فيه الإنسان بذاته فيهبها كلها ليسوع ويترك له أن يتصرف بخليقته كما يشاء.

ما أشهى أن يشارك الإنسان المسيح في عمله، يرى نفسه وقد كلفه يسوع بالسهر على مصالحه، ويتفاوض معه في طرق انتزاع نفوس خالدة من براثن الجحيم.

ما ألذ السلام وما أصفي السعادة التي يجدها المرء عندما يستطيع أن يغوص في كل أن في محيط الألوهية الذي لا حد له، فيحمس فيه أنه بعيد كل البعد عن جميع الترهات التي تشغل نشاط البشر.

ما أحلى ذلك المصير الذي تؤول إليه النفوس الحساسة والقلوب المحبة عندما ترى أنها تعيش في ألفة يسوع الإلهية فتشاركه أفراحه وتقاسمه متاعبها، وتنسيه بحنانها عقوق البشر.

يا يسوع! إنني أتوق أن أكون في عداد هذه النفوس السعيدة، أروم أن أعقد معك عهدًا أخويًا، فأعطيك قلبي لأمتلك قلبك ثم أنسى ذاتي معك وأرافقك إلى جلب النفوس إليك. إنه لحلم سماوي جميل.

هذا الحلم جميل. بوسع كل واحد أن يحوله إلى حقيقة عذبة. وحسبه أن يسير في طريق الحق، حسبه أن يرجع إلى الله في كل حين بمحبة.

إن الله هو مبدؤنا. فهو الذي خلقنا، وهو يبقينا على قيد الحياة ويشترك في كل أعمالنا. هو يعمل في كل وقت في قوانا وحواسنا وكل خلية من خلايا جسمنا. فلنعترف بمحبة بسامي سلطانه: إن في ذلك بذل الذات.

إن العمل الإلهي يسري في أفكارنا وعواطفنا، وأعمالنا كلها. هو يسند كل خليقة ويشترك في كل حركة من حركات الكائنات بأسرها. فلنستسلم بلا خوف إلى العناية الإلهية ولنمتثل بمحبة لإرادة الله السامية التي لا يسترح أحد أن يفلت منها. إن في ذلك أيضًا بذل الذات والقداسة.

حياتنا تجرى في حضن الله. إنه حاضر في كل مكان بجوهره الإلهي حضورًا حقيقيًا كما في السماء فلنلقين ذواتنا بين ذراعيه لأن الكمال هو أن نتركه يحملنا. الحياة الكاملة أن نحيا على صدر الله كما يحيا الطفل على صدر أمه. لنُلقِ عليه همومنا ولنِكل إليه أمر تدبير حاجاتنا مكتفين بمحبته: تلك هي الحياة الروحية ومقدمة حياة المحبة الخالدة.

المقالة الثانية

الله غاية الأشياء كلها

ليس الله مبدأ كل الأشياء فقط، بل هو أيضًا غاية كل المخلوقات عمومًا، وكل كائن على وجه التخصيص. إن لأقل حشرة كامنة تحت ورقة هدفًا في الوجود كما لحيوانات الغابة الضارية. ذرة الغبار المتطايرة في الهواء لها هدفها كالأجرام اللامحدودة التي تجوب الفضاء. أوضع البشر، والعبد المجهول التائه في قلب الصحراء. له غاية يسعى لتحقيقها أسوة بالملك الحاكم في مقدرات الناس.

كل ما هو مخلوق من عظمة واستحقاق يتوارى أمام الله ذي الجلال اللانهائي. وكل كائن، بما أنه من خلق الله، مدعو ليحقق مقاصد الله فيه: "أنا الألف والياء، البداية والنهاية. الأول والأخر يقول الرب"[1].

إن الكائن غير العاقل وغير الحر يسير بصورة حتمية نحو الهدف الذي حدده له الله. أما الإنسان فقد نال وحده من الله ذاك الامتياز الخطر، أن يبلغ غايته بملء اختياره وحريته. فإنه على مثال الله يعرف الخير والشر، يعرف أن العقل أعطى له ليدرك الحقيقة وأن أرادته وهبت له ليتعلق بالخير الأسمى. فإذا امتثل لهذا الترتيب الإلهي، واستسلم لإرادة الله، بفعل تلقائي صادر عن القلب. حقق الغاية التي خلق لأجلها.

غاية الإنسان أن يبذل ذاته لله بحسب تدبيره تعالى: ذلك واجبه الأول والأخير الذي يحوى الواجبات كلها.

[1] رؤ 1:8،17.

كل إنسان يبلغ سن الرشد يجد ذاته، في كل عمل من أعماله الحرة، أمام هذين الأمرين: مراعاة النظام الإلهـ ـي أو تشويشـ ـه. وكل إنسان يختار لزامًا أحد هذين الموقفين، فقد قال يسوع المسيح: "من ليس معي فهو على".

مسكينه هي النفس التي ترفض طاعة الله! فإنها تحكم بذلك على ذاتهما بالاضطراب والحزن والشقاء. أذ نا نرى في كل مكان نفوسًا شقية وأسرًا مفككة ودولاً في فوضى. في كل مكان يسود الاضطراب لأن الناس يرفضون طاعة الله. لقد استقرت الثورة بصورة دائمة في المجتمع لأن الإنسان تمرد على النظام وعلى السلطة وحتى على الله. فكل مخالفة تحمل معها عقابها.

إن الله يبلغ دومًا الغاية التي رسمها: إنه يمسك بيده العالم وكل ما فيه، فلا تستطيع أية خليقة أن تفلت مـ ـن سلطانه الأسمى، وهو لن يعطى مجده لأخر. "أنه يبلغ من غاية إلى غاية بالقوة، ويدبر كل شيء بالرفق[2] فتعاقب الممالك، وازدهارها وسقوطها والحوادث التي ملأت تاريخ العالم، والحروب، والانقلابات والاكتشافات: ذلك كله قد وجهه الله إلى غاية هو يعرفها.

كثيـ رون ظنوا أنهم يقررون مصير العالم، لكنهم كانوا أدوات غير واعية بين يدي العامل الإلهي. لا يـ تم على الأرض شيء إلا ويستخدمه الله لبلوغ غايته. فقد يحدث الشر أضرار كثيرة، وقد تفسد المجتمعات أو تنصـ رف عن عبادة الله فتجدف على اسمه القدوس، وقد يرد الناس، في كبرياء جنونية، على الله فيقصونه عن قلـ وبهم وعن عائلاتهم. وقد يسمح الله بأن تكون لهم مظاهر النجاح، وقد يدع كنيسته تضطهد وخدامه يعيرون، وقد يسمح للتجديف بأن يصول رافع الرأس وللرذيلة بأن تجرر وقاحتها في كل مكان. لكن محبة الله هي الغالبة في النهائية.

يا يسوع! إنك غايتي الأخيرة، وهدف وجودي، فإليك أسلم ذاتي لتقودها إلى ينابيعك.

المقالة الثالثة

الله هو العلة المثالية لكل شئ

إن الله هـ و مـ بدع الخلائـ ق وغايتها، وهو أيضًا علتها المثالية لم يكتف بتعيين نقطة انطلاق الخليقة وخاتمة الرحلة التي تقوم بها على الأرض. بل رسم لها أيضًا الطريق التي يجب أن تسير فيها.

فهـ و إذ صـ نع لإنسان على صورته ومثاله واعده ليعكس في ذاته خطوط رسمه الإلهي. فقد أراد أن يتكون مثالاً له في كماله.

إن الله يجـ رى منذ الأزل كل الكائنات التي يستطيع خلقها والتي سيخلقها في الواقع، وكل منها مرتب في تدبيره بطبيعته الخاصة وبدرجة الجمال والكمال التي عليه أن يبلغها.

[2] حكمة 1:8.

في هذا التدبير الإلهي حددت الطريق التي ستسلكها كل خليقة على الأرض، وموعد ظهورها في العالم، والدور الذي ستقوم به ووقت زوالها. كل تفاصيل وجودها مسجلة بوضوح في ذلك التدبير، وحرية الكائنات العاقلة لا تعطل في شيء هذه الدقة الإلهية، فالماضي والمستقبل حاضران أمام الله.

وأنتِ أيضًا يا نفسي. قد ميزكِ الله منذ الأزل. لقد رأيك في جوهره، بين عدد لا يحصى من الكائنات، لا كجزء منه بل كصورة لكماله غير المحدود، لجماله الإلهي. ومنذئذ عين الخطوط التي ستميزك عن كل خليقة، والجمال الذي ستختصين به. وهو في الوقت نفسه قد حدد بدقة غير متناهية الطريقة التي تبلغين بها هذه القداسة. ورسم السبيل الذي تسيرين فيه على الأرض، وعين المؤهلات والوسائل التي تكون في متناول يدك المساعدات التي ستقدم لك وأحوال الزمان والمكان الخارجية التي تعيشين فيها، والناس الذين تتصلين بهم وأصغر الحوادث المؤثرة في حياتك.

إنه سبق فعرف المصاعب التي تلاقينها في ممارسة الفضيلة في أعماق قلبك، وجهاداتك وسقطاتك وانتصاراتك، والصبر اللامتناهي الذي سيبديه نحوك.

لقد بارك بفرح منذ الأزل إخلاص أرادتك وحماسة قلبك واستقامته. وسُر بالمحبة التي ستخرج من قلبك كما تتدفق المياه الصافية من نبع غزير. ومنذئذ فرح بالألفة التي تكون يومًا بينكما.

لقد كنت في فكر الله منذ الأزل، أنا الخليقة الصغيرة الحقيرة. فأحبني إذ لم كن أستطيع بعد معرفته[3]. لقد خط لي الطريق وهو يمسكني بيدي حتى لا أحيد عنه يمينًا أو يسارًا.

أيها السيد القدير! إنك تدبر خلائقك بإشفاق كثير[4] وتسهر عليها بعناية أبوية. إنك تشفق أن يبتعد أبناؤك عنك فيهلكوا. فأنعم عليّ بأن احبك مدى الحياة.

المقال الرابعة
خلاصة الفصل الأول

الله مبدئي. فعلى عقلي أن يعترف له بسيادته المطلقة على والله غايتي. فعلى إرادتي أن تبذل له ذاتها بلا تحفظ. الله مثالي، فيجب أن تكون حياتي كلها صورة عن هذا المثال الإلهي.

إنني تجاه الله في وضع خضوع مطلق كلي فلا يكفي أن أعبده معفرًا جبهتي بالتراب، كمبدع وحيد لكل ما هو في الوجود، لا يكفي أن انزع إليه بكل طاقة نفسي كما أنزع إلى الغاية الوحيدة لوجودي. بل يجب أيضًا أن اتبعه خطوة خطوة، في كل لحظة من حياتي، وأن أستسلم لقيادته، وأن أتركه يتصرف بي كسيد بحسب مشيئته.

نعم، يا رب، إنك تريد أن أبذل لك ذاتي لا بتقديس نفسي فحسب، بل بطريقة هذا التقديس أيضًا. إنه ليس سيان عندك أن أتبع هذا الطريق أو ذاك لأبلغ السماء فقد رسمت لي الطريق بذاتك، منذ الأزل.

---

[3] أرميا 3:37.

[4] حكمة 18:12.

لـ يس في حياتي حدث لم تسبق فتعرفه بحكمتك وترتبه بعنايتك. ليس لي ما أغيره ولا ما أضيفه، ولا مـ ا أحذفه ليس لي أن أتوق إلى مصير غير الذي أعطى لي. ليس لي أن أتحسر أو اشتكي. ليس لي أن أسألك عـ ن أسـ باب تصـ رفك تجاهي، ولا أن أعرف لم خلقتني بهذه الطباع وبهذه المؤهلات، أو بذلك العجز وبهذه الأهـ واء، بهذه الثورات الداخلية أو بهذه النزعات. لست ملزمًا بأن تفسر لي لم أوجدتني على الأرض في هذا الزمان لا في زمان أخر، وفي هذا المكان المعين وهذا المحيط وهذه الظروف المؤاتية أو غير المؤاتية.

يـ ا إلهـ ي! سـ واء جعلتني غنيًا أو فقيرًا، عالمًا أو جاهلاً، شريف الأصل أو خامل النسب ومجهولاً ومحتقرًا أو أعطيتني نعمًا وضياء منعتها عن غيري، وأحطت نفسي بحمايات لم تعطها لآخرين: فعن هذا كله، ليس لي أن أطلب منك حسابًا. في هذا كله تكمن مقاصدك الأزلية بشأن نفسي وعلى إذن أن أقدس ذاتي.

يـ ا نفسي! كم كنت عائشة في الأوهام عندما كنت تضعين بذاتك مناهج القداسة، عندما كنت تحلمين، بمعزل عن مقاصد الله، بكمال عيشة وأعمال وأنوار وتعزيات وصلبان لم تكن لك. كم كنت تضلين عند اتباعك مسالك ضيقة فيما خط لك الله نفسه. منذ الأزل، جادة عريضة واسعة.

لا، لا تسـ ألي المـ ارة علـ ى الطريق الحقيقي الذي يفضي إلي الله لأنهم لن يعرفوا بم يجيبون، إنهم يعـ رفون مصـ يرهم ويجهلون مصيرك. فسيرى غير هيابة، فالله معك، لا يطلب منك سوى الطاعة والخضوع لأرادته السامية.

هـ ذا المصير الذي هيأه الله منذ الأزل لكل نفس، قد عين لها في الزمان. حياة الإنسان تتابع كلوحات واسـ عة سجلت فأيها سلفًا كل الحوادث والأحوال. يقول الله: أعبد وأرض. والنفس البسيطة تجيب: إنني أرضى وأحـ ب وأستسلم لك. أما النفس اللامبالية فتمر من غير أن تحفل بالكنز الذي تهمله والكرامة التي تستخف بها، والنفس المقاومة تلعن وتجدف. لكن عمل الله يستمر، حاملاً معه في كل برهة واجبًا جديدًا، ومقدسًا بلا انقطاع النفس التي تستسلم له.

إنني أستسلم لك وأخضع لأرادتك يا إلهي، يا مبدأ كياني وغاية وجودي ومثال عملي.

مهمتـ ي أن أتبعك خطوة خطوة كالولد الذي يمسك بيد أمه. أنا لا أريد أن أسبقك ولا أن أتخلف عنك. سأسـ ير علـ ى خطـ ا متممًا واجبات اللحظة الحاضرة قابلاً الصلبان التي تأتي تأتيني بها، ومستسلمًا لأرادتك ومقاصدك الحاضرة والآتية.

أنا اعلم أن كل ما يأتي من يدك حسن، لأن عنايتك الإلهية قد سبقت فعرفت كل شيء ونظمته.

الفصل الثاني
من الحكمة أن نبذل ذاتنا لله

المقالة الأولى
أن الله يتهم بتقديس النفس المستسلمة إليه

بـ ـذل الذات لله هو أن نقدم له كياننا بمحبة مضطرمة وأن ننسى ذاتنا فلا نهتم بها وأن نكل الله تدبير كل شيء انه تسليم تام لله.

أنـ ـا اعـ ـرف أن الحكمة البشرية تحتج على كلمة التسليم هذه فقد تروم أن تقيم بعض التحفظات، وأن تطلب ضمانات، وأن تضع على الله شروطًا. ألا يظهر أن عملية التقديس على هذا النحو تصير كصفقة تجارية بـ ـين الله والنفس كعقد ثنائي يحاول فيه الفريقان المتعاقدان تأمين مصالحهما كشخصية قبل كل شيء؟ لننبذ هذه المفاهيم الحقيرة لأنها من وحي حكمة الجسد.

أن نستسـ ـلم لله جسـ ـدًا وروحًا، ونرتمي فيه كما يرتمي الطفل على عنق أمه، ونحبه، فنتولى له ذلك ونردده بلا انقطاع: ذلك هو الكمال، ذلك هو سر القديسين وطريق اجتذاب قلب الله.

إن يسـ ـوع لا يريد أن تشغل النفوس بشيء أخر غير محبته وإظهار هذه المحبة له. أترى ملك الملوك تنقصه القوة والحكمة والصلاح، حتى تخاف النفس على مستقبلها؟ أننا لو نظرنا إلى اهتمام بعض النفوس القلقة لظننا ذلك؟

أيها السيد! لقد صممت منذ الأزل أن تقدمني ولم تبدع الكون إلا لتخلصني.

لقد قال يسوع لإحدى القديسات: "إنني مستعد أن أتحمل عذابات آلامي كلها مرارًا تساوى عدد النفوس الهالكـ ـة. ولكـ ـن واحسـ ـرتاه! أنها ترفض الخلاص المعروض أمامها". وأنتِ يا نفسي المستسلمة ليسوع بدافع المحبة، كيف تخافين؟ الأم، التي تسند خطوات ولدها الأولى هل تترك هذا الولد يقع في التراب؟ وأنت إذ تمدين يدك ليسوع أتخافين أن يتركك في نصف الطريق؟.

إن الله يريد تقديس النفوس. ولذا يترك المجتمع قائمًا رغم الدود الذي ينخره، ويتغاضى عن المجدفين على اسمه القدوس والناكرين عنايته والمثيرين غضبه الإلهي.

ومـ ـن أجل تقديس النفوس يدبر الله الكون وينظم تتابع الفصول وينزل أمطاره على حقل الصديق كما على حقل الخاطئ.

الرب عظيم وجدير بكل تسبيح[5] إنه في العالم كله، لم يخلق كائنًا، ولا يسمح بأي حادث، أو بأي سوء، إن لم يكن ذلك آئلاً إلى خير النفوس.

---

[5] مز 2:47.

فه يا ي ا قلبي! دع صغر النفس وتوكل على الله. أغمض عينيك واستسلم لذراعيه. لم يقل يسوع: "لا يستطيع أحد أن ينزع منى أولئك الذين أعطانيهم الآب"؟[6] أحب إلهك، اصنع كل شيء بمحبة، تقبل كل شيء من يده، ثم تقدم غير هياب فتصل إلى القداسة.

المقالة الثانية
أن الله يضع حكمته وقدرته في
خدمة النفس المستسلمة له

إن الله يريد تقديسك، العلة يجهل ما يوافق نفسك؟ أتحسب نفسك قادرا على إرشاده بعلمك؟.

أيها الإنسان! دع عنك هذا الاهتمام. فأنت لا تعلم من أين أتيت وتجهل إلى أين تذهب.

ه ل كنت !حاضرًا عندما رتبت الحكمة الإلهية الكون، ورسمت للكواكب سبيلها، وقالت لموج البحر: لن تعدو إلى ما أبعد؟ هل طلبت مشورتك عندما خلقت النفوس الخالدة بنفخة من فمها ورسمتها بصورتها؟

إن رسم صورة الله في النفس لعمل يفوق علم الإنسان وهو من اختصاص الله وحده فأخش أن تشوش عمله.

نفس ك أية كمال وجمال. كل ما فأيها من شعور وعقل وإرادة ونعمة وفضائل مرتب بطريقة مدهشة. ذرة غ بار تستطيع أن تعرقل سير هذه الآلة العجيبة. فما بالك تتدخل بإرشاد من أبدعها بهذا الدقة؟ أنت أعمى وت ريد أن تقود ذاتك! تراقب بقلق قيادة الله لنفسك وتعترض على الحركة التي يدفعك إليها والهدوء الذي يتركه لك. يا جاهل! أنت لم تر هذه النفس التي تريد سياستها فدع عنك هذا الاهتمام فالله لم يرسم لك سوى أمر واحد وسهل: أن تحبه، واحتفظ لنفسه بما هو صعب. فاقنع بنصيبك والله يتولى ما تبقى.

إن عمل ه يش مل العالم من أقصاه إلى أقصاه ويداخل المخلوقات كلها حتى اللب، حتى الجوهر. فهو الذي يخلقها ويحفظها ويحركها. هذا العمل الإلهي يملأ الكون: إنه سري وخفي، غير أن الإيمان وحده قادر على كشفه.

إن م ا رسمه صلاح الله لتقديس النفوس وما أمرت به حكمته لإبلاغها هذا الهدف الأسمى، تحققه قدرته الإلهية.

أي تها النفوس التقية: إن الله يعني بتقديسكن وقدرته تفعل في هذه الآونة عينها وأنتن تخضعن لفعله القدير: كل ما يجري فيكن وخارجكن من الحوادث يغدو لكن أدوات للنقش والتجميل: الأفراح والأحزان، النجاح والفشل، التعزيات والضيقات، الآمال والمخاوف، في ذلك كله يتحول إلى أداه بين ذلك الصانع المبدع.

اذ ه ينتقى لذاته مساعديه في هذا العمل الإلهي. فإن احتاجت النفس إلى مرشد ليبلغها الكلمة المؤاتية، أرسل الله ه ذا الإنسان من أقاصي الأرض ومهد أمامه الجبال وهدأ أمواج البحر، وإن دعت الحاجة فإن الله

[6] يو 29:10.

ذاته يـ نقله كما رفع حبقوق قديمًا ووضعه بقرب جب الأسود. إن النفس المحتاجة إلى مثل هذه المساعدة لا تحرمها ولو اقتضى إرضاؤها قلب نظام الكون.

إن عمل الله في تقديس النفوس ذوات الإرادة الحسنة لا يعرف حدودًا، ولا تستطيع خليقة أن تمنعه أو تـ وقفه، لأنه يسمو على الصعاب ويعلو على الحواجز. إن العنف يتلاشى أمام صبر نفس مستلمة لله، والحيلة ترتبك في شباكها أمام بساطة هذه النفس، والكذب يرتج عليه أمام براءتها الساذجة. وما كان يظن خرابًا للنفس البسيطة يصبح لها خلاصًا. وما يحاك بكل دقة للنيل من فضيلتها على حين غرة يثبتها في الخير. أمامها تنفتح الحواجـ ز وتنخفض الجبال وتمتلئ الوديان وتتحول المهاوي إلى طريق واسعة ممهدة، فلا سبيل إلى إيذاء نفس مستسلمة لله، ولا إلى إيقاع تلك التي تسير متوكئة على ذراع يسوع.

يـ ا نفسي! ابذلي ذاتك لله، واثبتي في محبته، أنسى ذاتك فإن الله صالح وحكيم وقدير. ألقي على الرب همك وهو يعولك[7].

المقالة الثالثة

عمل الله في النفس ملئ بالأسرار

ربى! إنني لك، وأسر بأن احسب ذاتي كولد صغير بين في ذراعيك. وأضع في قلبك الأبوي همومي كلها.

أريد أن أتفانى في التأمل بقدرتك الإلهية وفي ضعفي المتناهي. فهذه الفكرة تحررني من أنانيتي ومن اهتماماتي، وتجعل في نفسي حرية مقدسة وعزة بنوية.

يـ ا نفـ س! انـ ك فـ ي عمل تقديسك لا تستطيعين شيئًا إلا بالله. فالنعمة التي هو صميم كيانك الفائق الطبيعة، ليست إلا عطية من الله، وهى تفوق إدراكك.

إن فعـ ل النعمة خفي كالنبع الذي تصدر منه: النعمة تأتي وتذهب وأنت تجهلين أنها قد مرت بك. أنها تـ تغلغل في ملكاتك. لكن عملها يبقى سريًا. فعل النعمة تارة يهدر كالسيل ويصب في النفس لجج نور ومحبة: "ومـ ن نهـ ر لـ ذاتك تسقيهم"[8] فتصبح النفس مغمورة به فتصرخ مع القديس فرنسوا كزافييه: "حسبي يا سيد، حسـ بي! فما عدت قادرة على احتمال خيراتك". وطورًا تجرى النعمة في النفس كالماء في ساقية هادئة، فتسقي القوى وتلج الحواس وتروى الأفعال، فينمو كل شيء ويزدهر بندى مفعولها. وكالحقل الخصب تعطي النفس لله غلة وافرة.

وأحـ يانًا يكون فعل النعمة قاصفًا كدوي الأمواج في بحر مضطرب: فيروع قائد المئة أمام الصليب، ويجمـ د حراس المسيح فزعًا، ويطرح بولس أرضًا على طريق دمشق، ويخضع الجماهير الآتية لسماع وعظ بطرس الرسول.

---

[7] مز 23:45.

[8] مز 9:35.

وأحـ ياناً أخرى تكون نغمته لطيفة كالنسيم فتمر مداعبة النفوس وتلاطفها وترفعها وتحملها معها إلى أجـ واء عليا، فتحس النفس أنها في الرضى والسرور وقوة العزيمة، وتغدو وكأن حضن الله قد أصبح لها مقامًا عاديً ـا ومضجعًا لراحتها. ولكن هذه الرؤيا السعيدة لا تدوم إذ لا تلبث أن تتجهم السماء وتتلبد الغيوم ويتواري وجـ ـه الله الضـ ـحوك فتبقـ ـى النفس وحدها بلا نشاط ولا مرشد: فتثور الأهواء وتصدمها الحوادث ويضطهدها الناس. أيها السيد أين أنت؟ أتراك تترك السفينة الضعيفة تغرق؟– كلا. إنك قريب تسهر وتقوي الإيمان، توطد الـ ـرجاء، وتضرم المحبة، ولكن بطريقتك يا الله. يا لفعل الله! من يستطيع أن يكشف أسرارك، من يستطيع أن يتتـ ـبعك في سيرك الجبار انك تطوف الكون وتدوس بقدميك الجبال، وتقطع الصحارى فتشعر العشبة الصغيرة بمـ ـرورك. اذ ـك حيثما تمر تحيى وتخفض وترفع. فمن ذا يكشفك لأعيننا وأنت تستعمل المخلوقات كحجاب، وتستتر وراء أخس المظاهر. كاستتارك وراء أرفعها. أيها الفعل الإلهي، من يستطيع الافتخار بالنفاذ إلى سرك وبإدراكـ ـك وبحجزك في أشكال محسوسة أو بتنظيم سيرك، فأنت تارة نبع متدفق، وطورًا سيل سريع، أو نهر صاخب وبحر عميق.

يـ ـا نفسـ ـي، لا تحاولي أن تسبري أعماق السر الإلهي. فليس لك أن تعرفي فعل الله وتحّلليه. واجبك يقتصر على عديم معاكسة هذا الفعل الإلهي، وأن تفتحي عندما يطرق بابك، وان تستقبليه بمحبة مهما كان نوع التنكـ ـر الذي يظهر فيه. إن الله قادر على كل شيء وهو يقدسك فاستسلمي له، أحبي إلهك وباركي في كل وقت اسمه القدوس.

المقالة الرابعة

إن الله يصنع العجائب في النفس المستسلمة له

عـ ـندما تستسلم نفس لله بلا تحفظ، متخلية عن قيادة ذاتها ومرتمية في أحضانه، يرى الله ذات ملتزمًا بأن يتعهدها هو نفسه ومنذئذ تشرع قدرته في العمل لتبلغها الكمال.

كل خليقة طيّعة بين يدي الله، فهو قادر أن يجعل من القلب القاسي قلبًا ملائكيًا. بدونه لا تنفع الكفاءات الطبيعية شيئًا، وبه تتحول النقائص إلى فضائل. بدونه ينفخ كعلم ويهلك، وبه يتّبدد الجهل أمام المعرفة.

أن قطـ ـرة الندى وذرة الغبار والحشرة المخبأة تحت العشب تثير أمام العالم مشاكل لا سبيل إلى حلها. ملايـ ـين الميكـ ـروبات التـ ـي تعج بها قطرة الماء، تملا عقله ذهولاً، كما تذهله ملايين العوالم التي تتحرك في رحـ ـاب السـ ـماوات. الأرض والبحر ممتلئان بالعجائب. والإنسان نفسه هو اعظم الأسرار: من يستطيع تفسير عمل حواسه وملكاته؟ وميول قلبه ونزعاته؟ من تراه سبر غور طبيعة النفس، تلك الروح المتصلة بالمادة؟

وكلما ارتقينا في سلّم الكائنات كثرت العجائب واكتنفت الأسرار عقل الإنسان وتحدثه. وما عسانا نقول إذا ما تخطينا عتبة العام الفائق الطبيعة؟ وماذا نقول خصوصًا عندما يكشف أمامنا عالم الأرواح محاسنه؟

عجـ ـيب الله في قديسيه! انه يعمل في كل نفس تنقاد له وكأنها وحيدة في العالم، ويستعمل في تجميلها قدرته اللامتناهية، وينتقي لها أجمل الحلل.

كل نفس عالم جديد من العجائب: فإن الله لا يصنع نسخاً لأعماله، وليس بين تحفه واحدة لا تختلف عن الأخرى بل كل "نجم يمتاز عن نجم أخر بالمجد"[9]. والله يحب أن يكثر عجائبه، فهو يشبعها بسخاء في عالم النفوس حيث لا يظهر شيء فوق القيام في الفن أو في الجمال. ولم يمسك الله يده في توزيع نعمته؟ أليس هو الله القدير؟ أو ليست النفوس المستقيمة بنات له يحبهن محبة الحنان؟

يا نفسي! إنك لتجهلين الطريقة الرائعة التي بها يدرجك الله في الكمال. أنت لا ترين في وجودك إلا تتابعًا رتيبًا لأعمال لا طائل تحتها وتضحيات ومشاغل تافهة. فبهذه الطريقة يصور الله فيك صورته الكريمة. تميلين إلى الصبيان الكبيرة، وإلى أعمال البطولة وتسعين لتبذلي حياتك في سبيل إرضاء الله، أما هو فلا يرتضي هذه الطريقة. إنه لا يريد أن تتقدسي الآن، بالأمانة أو باضطهاد الأشرار لك، بل بالعديد من أعمال الحياة اليومية التي تعينها لك الطاعة. فعندما تهملين شيئاً من فرائضك المقدسة إلى واجبًا يسيرًا من واجبات حالتك الحاضرة، قد يكون الله مهتمًا بإعطائك مسحة من جمال خاص، فعدم انصياعك يخالف عمله هذا.

تظنين أنك تساعدينه عندما تستنبطين طرائق جديدة للتقديس فتنقبين في سير القديسين وتقرئين الكتب الروحية بنهم. ومع ذلك فليس هذا ما يقدسك، بل بذل ذاتك في كل أن بمحبة كريمة.

يا نفسي! لا تبحثي عن القداسة بعيدًا عنك فهي بك من كل جانب الخلائق كلها تأتيك بها، حوادث الحياة جميعًا ملأى بها. أن ما يبتغيه الله منك يبلغ إليك في كل لحظة بواجباتك اليومية، وبمعزل عن هذا الواجب اليومي ليس لك قداسة ولا سعادة. فأقبلي إرادة الله مهما كانت الظواهر التي تسير بها، تقبليها فخورة وافتحي لها بابك قلبك على مصراعيه لأنها رسول الله إليك. قد تكون حاشية هذا الرسول حقيرة في أعين الناس، فلا تأبهي بذلك، فإن الله هو الذي يعبر. ما يأتيك به هذا الرسول قد يظهر لك قليل الأهمية، ولعله معاكس لتفكيرك أو مناقض. فلا تكترثي لذلك، أن هذا الآتي باسم الرب هو رسول الله، ابن داود. فاحمديه، وافرشي ثيابك أمامه اعبديه واهتفي مع القلوب البسيطة المستقيمة: "هوشعنا لابن داود، مبارك الآتي باسم الرب"[10].

المقالة الخامسة

إن كلمة الله وحده هو مثال قداسة النفس

إن كلمة الله هو المثال الذي يجب على الخلائق كلها أن تبلغ كمالها بالاحتذاء به، كل نفس تحيا منذ الأزل في هذا العقل الإلهي، بجمالهما الخاص وسمتها الشخصية.

غير أن هذا المثال يسمو طبيعتنا البشرية سموًا لا حد له، لذلك جعله الله مناسبًا لضعفنا فتجسد ابن الله وصار باكورة الخلائق كلها. ونحن قد سبق لله فحدد أن نكون مشابهين لصورة ابن الله.

فالإله المتجسد، يسوع المسيح، هو المثال الإلهي المتأنس الذي يجب أن نقدس ذواتنا وفقًا لصورته.

---

[9] 1 كو 41:15.

[10] متى 29:21.

إن يسوع كرسّام ماهر، عنده كل لون وكل ريشة. وبما أنه سيد الأزمان، فهو يسد تخدم الزمن كما يشاء، فيطيل السنين، إن مست الحاجة، ليتمم عمله. وهذا العمل هو وحده يعرفه، وهو وحده يستطيع أن ينفذه، وهو لا محالة متممه، ما لم يعطل الإنسان فعله.

ترين، يا نفسي، إن من الحكمة أن تستسلمي لسيدك. فماذا تعرفين عن التصميم الإلهي؟ ماذا ينفعك أن تفحصي العمل الإلهي بفضول وأن تحلليه وتبدي فيه حكمك وخصوصًا أن تشجبيه؟ ألا فاقبليه بحب ودعي الله يكفيك كما يشاء.

وماذا تنفعنا معرفة أعمال الله إن لم تقدنا إلى محبه؟ فالنفس لا تتقدم في الكمال بفعل العقل وحده وإنما بفعل الإرادة والقلب أيضًا. لو أتيح لي أن أتأمل في السماء كل تحف الفنان الإلهي، ولو عرفت بالتفصيل ما خفي من العجائب في سيرة كل قديس، ولو ميزت فيهم فعل الروح القدس العجيب فماذا تنفعني هذه المعرفة إن لم أقبل أنا الصور التي طبعها في الفنان الإلهي؟ إن الأرض لا ينقصها العلم، بمقدار ما تنقصها المحبة والطاعة والاستسلام للعمل الإلهي.

كفي يا نفسي عن القلق بشأن تقديسك. كفي عن البحث بتحرق عن وسائل تقدمك في الفضيلة. لقد هيأها الله منذ الأزل وهو يقدمها لك الآن في كل لحظة من أيامك. تلك هي القداسة في اللحظة الحاضرة: ذلك هو بذل ذاتك المحدد في كل فعل وفي كل آلم من آلامك اليومية. وأما الباقي فلا يخصك ولا يمكن إلا أن يضر بك.

أه! ما أقل تقدير بساطة النفس التي تستسلم هكذا لله أيتها البساطة أنك تظهرين كجهل وغباوة. ولكنك في الحقيقة مهارة وحكمة إلهية. فسيرى أيتها النفس البسيطة سيرى ولا تقفي ابدًا، فمعك دليل آمين.

بوسع كل النفوس أن تصل إلى قداسة سامية إذا سلكت هذه الطريق. وإذا كان القديسون علي الأرض فليس الذنب فيه على الله بل على النفوس عينها.

المقالة الساسة
يسوع وحده يعلم المقام الذي تحتله النفس في جسده السري

يا يسوع! أنت مركز الكون. كل شيء يدور في فلكك، كل شيء يتجه إليك. أنت مصدر كل حقيقة، ومنبع كل محبة ومثال كل جمال.

أيها الإله المتجسد! إنك تجمع في ذاتك الخالق والمولود، المحدود ومن لا حد له، أيها المخلص، إنك مبدع عالم النعمة الذي يصل بين نظام الطبيعة ونظام المجد.

فيك تجد كل العلوم وحدتها، وكل الفضائل مثالها، وكل الفنون كمالها. فيك تفسير الوقائع الهامة في تاريخ الشعوب أنت وحدك توضح غوامض تتابع الممالك، والانقلابات والثورات والحروب. أنت وحدك تستطيع حل المشاكل التي تقلق قلب الإنسان. بك يصبح للألم معنى وللرجاء أساس ولتوقنا إلى السعادة غاية.

فأن ت يا يسوع أنت موحد القلوب! إنك تؤلف مع كل النفوس البارة جسدًا سريًا واحدًا أنت رأسه وأنا أحد أعضائه.

لق د اختارني "كلمة الله" منذ الأزل لأكون عضوًا في هذا الجسد السري رأى وأراد المقام المعين الذي اش غله والعم ل الذي أتممه فيه. انه ميز الأمراض التي ستعتري كياني الروحي وما قد يلحق به من الأوهان، ووصف الأدوية الخاصة التي سيستعملها للتغلب على هذه العلل.

ل م يفل ت من عنايته الإلهية أمر واحد مما يخصني. وما صنعه لأجلي، يصنعه أيضًا لأجل كل من المؤمن ين لأنهم جميعا أعضاء في جسده. إن الرأس الإلهي يعتني بكل واحد كما لو كان وحيدًا في العالم. يعين لكل واحد مكانه والمهمة التي يقوم بها، ويساعد ويرتب ويتدارك ويشفي بحسب حاجة كل واحد.

فم ا أحك م أن يت رك الـ رأس الإلهي ليعمل على هواه، وان يلزم المرء وحده ويتمم واجباته بأمانة ويخضع لفعل يسوع ويتقبل نعمه!

وا أسفاه كم حاولت أن أخرج من نطاق هذا الفعل الإلهي، وأن أعين لنفسي المهمة التي أقوم بها وأن ارسم حركاتي، وأنتقى وظائفي، فأتعدى هكذا على قائدي الإلهي.

ي ا نفسي! استسلمي من الآن فصاعدًا ليسوع، وتخلى عن إرادتك. إنك عمياء ولا تعرفين حتى المقام الصغير الذي تشغلينه في جسد المسيح. فإذا تصرفت بحسب رغبتك وتبعت هواك تعاكسين فعل يسوع.

ي ا يس وع ابعد عنى هذا الشقاء. إن قلبي يطلبك بلا انقطاع يروم أن يفنى فيك، وإن يحيا تلك الحياة المس تترة (مع المسيح) في الله. كما تغرز عشبه الحقل المتواضعة جذورها في الأرض كذلك أنا انبت جذوري ف ي قل بك الأق دس أيها المعلم الصالح وكما تتعلق النحلة الصغيرة بالزهرة، هكذا أنا أتعلق بك يا زهرة يسي الإلهـ ية إنني أغوص في كأسك وارتوى منه طهرًا ومحبة. الست ناصعًا كالزئبق وأحمر كالورد؟... ألا تقطر شفتاك عسلاً صافيًا؟

ما أجمل هذه الحياة التي سأحياها بيسوع! انه يأخذ على عاتقه أن يقدسني وأنا أعاهده بأن أحبه.

أي تها الأم الحـ نون العـ ذراء، حوّلي عيني وقلبي عن كل مغريات الأرض. احمليني بين ذراعيك يا مركبة إسرائيل الإلهية. فعندها أشعر بأننا ندخل في أجواء أرفع، إلى عالم كله نور وصفاء.

المقالة السابعة

إن الروح القدس ينوع فعله كما يشاء في النفوس المستسلمة له

بـ ذل الله ذاته للنفس وبذل النفس ذاتها لله: ذلك هو الكمال. وهذا البذل يتم بواسطة يسوع. فغاية حياتنا على هذه الأرض أن نولد بيسوع، وأن نتقوى فيه، وأن نبلغ فيه كمال نمونا الروحي.

ولكن، كيف يتم هذا النمو؟– أننا نولد وننمو في يسوع بالنعمة، وهذه يفيضها الروح القدس في نفوسنا. إن جسد يسوع السري، أي الكنيسة يشبه شجرة، والماء الذي ينميها هو النعمة.

هـ ذه الشـ جرة الضـ عيفة التـ ي غرسـ ت على الجلجلة في الأرض التي سقاها يسوع بدمه، قد نمت وتفـ رعت. لقد تأصلت في الأرض الوثنية، طيلة ثلاثة قرون كلها اضطهاد ومدت جذورا عميقة، ولما هدأت؟ ريح العاصفة بسطت أمام عيون العالم غصونها القوية المثقلة الأوراق والأزهار والثمار.

إن يسـ وع هـ و جـ ذع هـ ذه الشجرة العظيمة التي تظلل جميع شعوب الأرض وكل مؤمن هو أحد أغصانها. والله أخذ على عاتقه أن يحملها بالثمار: "أبى هو الكرام"[11]. هو يسهر على جمالها وخصبها ويشذبها عند الأوان، ويقطف في الأوان المناسب الثمار الناضجة.

أما النمو فهو عمل الروح القدس الذي هو محبة: وهذه المحبة الإلهية هي حياة الله نفسها، هي طبيعته: الله محبة[12].

هـ ذه المحـ بة قد انحدرت من الله إلى الخليقة العاقلة، فأفاضها الروح القدس، بلا حساب، في المسيح جـ ذع شجرة الكنيسة، وهو يتابع عمله فيغذى بتلك العصارة عينهما كل الفروع التي ينميها حتى أخر الأزمان. هـ ذه الحـ ياة الإلهية، الواحدة في حد ذاتها، متنوعة إلى ما لا حد له في مفاعيلها. فمن خواصها أنها لا تعطي ثمرتين بطعم واحد وعطر واحدة بل تنوع عملها إلى ملا نهاية له.

إن النفوس التي قدسها الروح القدس، منذ بدء الأزمنة، كلها جميلة في نوعها. بعضها يتميز بطهارته الملائكية ونقاوته البتولية. وبعضها الأخر يتميز بتقشفه. وبعض هذه النفوس قضى حياته في مناجاة قلبية هادئة مع يسوع، وغيرها طافت الأرض والبحار سعيًا وراء النفوس، أمثال بولس الرسول.

البعض ذابوا بمحبة يسوع المصلوب وغيرهم أكلتهم غيرتهم على مجد الله.

كـ ل عجائب النعمة هذه المتنوعة يفعلها روح الله الواحد. وفعل الروح هذا يتم برفق وهدوء. فتصعد الحـ ياة الإلهية باستمرار وتسرى بسكون من الجذور إلى الجذع ومن الجذع إلى الأغصان وتعود من الأغصان إلى الجذور، ولا تقف إلا أمام الحواجز التي توضع لها. وفي بعض مراحل الحياة، يقوى جريها: فيكون حينئذ ربيع الحياة الروحية وصيفها، وفي بعضها الأخر تظهر وكأنها قد جفت، فتختفي عذوبة النعمة وتفتر المشاعر الحلوة وتخمد الانطلاقات النشيطة: هذا هو الخريف الحزين والشتاء الطويل. هذا وقت التجربة الذي تجمع فيه الـ نفس في داخلها، في الإرادة، كل قواها الحيوية فتنقيها وتضاعفها وتتهيأ للانطلاق في حياة جديدة أشد نشاطًا وأكثـ ر سموًا. طوبى للنفوس الطيعة التي بذلت ذاتها لله، إنها تفهم أن مهمتها تنحصر في إفساح المجال لروح المحبة يعمل فيها!

المقالة الثامنة

كل شيء يساعد علي تقدم النفس البسيطة بإرشاد الروح القدس

يا روح الله القدوس! انك تمسك بيدي لتقودني رأسًا إلى الهي. فأريد أن أكون طيعًا وأن أنسـ ى ذاتي

[11] يو 1:15.

[12] يو 8:4.

واستسلم لإرشادك، فأنا أرى في هذا أسمى درجات الحكمة.

إن المسافر الذي يجهل خريطة البلاد التي يجول فيها، لا يركن إلى معارفه الخاصة بل يستصحب دليلاً أميناً. وأنا، ماذا أعرف عن بلاد القداسة؟ كل شيء فيها غريب عني، السكان والشرائع والعادات وطرائق الحياة، حتى اللغة الدارجة فيها. فما هي الوسيلة حتى لا أضل عن الطريق؟

ثم إن لي أعداء يهمهم تضليلي، وهم كثيرون وماكرون وبعضهم قد تسلل إلى صميم داخلي فصار جزءًا مني. يتحالفون كلهم على، ولا يتركون لي راحة ما لم يروني قد وقعت في الهاوية فكيف أنجو من هذه الفخاخ الكثيرة؟ لي بيت الطريق واسعة وممهدة! لكنها ليست إلا مسلكًا ضعيفًا يضيع أحيانًا في جبال عسرة المسلك، وأحيانًا يغور في مستنقعات موحلة: ومع ذلك لابد من السير الدائم، فالتراجع يعنى الهلاك المحقق.

ما أكبر حاجتي إلى ألا أركن إلى ذاتي بل أن أتعلق بدليلي. هذا الدليل المرشد هو الروح القدس، المعزي في الضعف والأحزان، العاضد في مصاعب الطريق، والمنير في الظلام.

انه يجعل من تقديس النفوس شغله الوحيد. إن عنايته تسوس العالم تتصرف بالتيجان، وتعطى السلطة وتزيلها وذلك كله يتم بحسب مشيئته ولأجل خير النفوس. كثيرًا ما نسائل ذواتنا، لم هذه الثورات والحروب والأوبئة والكوارث الاجتماعية الكبرى؟ لم نضطهد وتذل البلدان الضعيفة، وينتصر العنف؟ لم هذه الكوارث العامة، وأحزان العائلات، والمجازر البشرية، ودموع الأمهات؟

ما أقصر مدى نظر العقل البشرى؟ هناك نخبة من النفوس، وقد تكون كثيرة. تنقيها التجارب وتقدسها. هنالك نفوس لن تخلص أبدًا لولا هذه التجارب.

فيا حكماء هذا الدهر وعظماءه! أنتم تظنون أنفسكم سادة محكمين في مقادير هذا العالم، تفرضون عليه السلم أو الحرب لكن الله لا يأبه لقدرتكم، فهي بنت يوم واحد.

ليس مرشدي متفانيًا في خدمة نفسي ومصممًا على تقديسها فقط، بل انه يملك أيضًا كل الوسائل لتتميم ذلك ويختص بذاته وحده انتقاءها. فبهديه تصبح كل الطرق حسنة وتقود إلى الغاية. انه يسر بترك النفس جاهلة مأربه، فيقودها بين المهاوي ويصعدها الجبال الوعرة.

بيد أن النفس التي أسلمت له ذاتها لا تفقد أبدًا شجاعتها لقد تعلمت أن تنسى ذاتها وأن تتكل على معلمها. فتنقشع الظلمات بعد قليل ويعود الهواء، ويسير الدليل الإلهي من جديد إلى جانبها: لقد أراد أن يعلمها كيف تبذل ذاتها بلا تحفظ، له وحده أن يعني خصوصًا بتقديسها.

لنسر معا أيها الروح القدس. إنني أستسلم لك. لن أخاف ولن أتردد من بعد، بل أرمي ذاتي بلا تحفظ في حضن عنايتك فأهدني وقدسني، أما مهمتي فأن أمحي، أن أختفي.

الفصل الثالث

من السهل أن نبذل ذاتنا لله

المقالة الأولى

تخطئ النفس إذ تبالغ في تصور

مصاعب الحياة الروحية

إن الله هـ و السيد المطلق على كل شيء. هو مبدأ كياني وغاية وجودي، والمثال الإلهي لحياتي، وله على سلطان مطلق وشامل.

أنني لأجزع أمام هذا الواجب الخطير: أن أكون بكاملي لله. لا أستطيع أن أقصى عنه أي فعل ولا أية برهة، من دون أن أكون مختلسًا.

كـ يف يمكن أن توقف له حياة بكاملها، مليئة بألوف الأعمال اليومية؟ فالعقل يولد أفكارًا لا حصر لها، والقلب يولد عواطف لا عد لها، فكيف يمكن التسلط على كل هذا العالم الداخلي؟

إن الأهـ واء العذ يفة أو غير المروضة، تواصل عملها بلا انقطاع. والحواس تتحمل بصعوبة نير الإرادة. والمخـ يلة تظن نفسها سيدة البيت فتقلب النظام الداخلي، العقل تخدعه الحواس وتغويه ظواهر الحقيقة، والإرادة نفسها ضعيفة ترتبط بالعدو بعلائق سرية.

وكيف يمكن أن توقف لله حياة بكاملها عندما تتكاثر العقبات الخارجية حول النفس؟ كثيرون هم أعداء الله وأعداء التقوى، واللامبالون الجبناء أكثر أيضًا: إن الحياء البشري هو سيد العالم وقد حولت عن الله ابتسامة أو سخرية أو كلمة قارصة نفوسًا أكثر من التي حولها الشيطان نفسه.

وفضلاً عن ذلك، كيف يمكن أن يشعر المرء بأنه مسلح ضد أغراء العالم الحالي وضد مغريات الشر ولأمـ ثلة السيئة والمبادئ المفسدة؟ أه! ما أصدق ما قيل: "إن جميع الذين يريدون أن يحيوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون[13].

ولـ و أن حـ ياة الـ بذل لله هذه لا تدوم إلا بعض الوقت لهان الأمر، لكنها يجب أن تدعم حتى النفس الأخير، بلا هوادة ولا استرخاء ولا تخفيف، لأن كل شيء هو لله ويجب أن يكون له.

كـ يف يمكـ ن تحمـ ل وصـ راع دائم مثل هذا، ضد ذاتنا وضد العوائق الخارجية وضد الأعداء على اختلاف أنواعهم؟ إن النفس تتعب آخر الأمر، والقلب يمل، والإرادة تضعف والعادة الرتيبة تحل محل الحرارة.

وداعًـ ا أيتها القداسة فإنك لصعبة جدًا! انه لصعب قاس، أيها السيد، الكلام الذي يدعوني إلى مثل هذه الحياة، فمن يستطيع سماعه؟

---

[13] 2 تيمو 12:3.

قاتمة صورة الحياة هذه، فهل تريدين يا نفسي أنت أيضًا أن تذهبي ولا تعودي تتبعين المخلص الذي يدعوك إلى اتباعه؟

يا يسوع! إلى من أذهب؟ أليست كلمات الحياة الأبدية عندك؟ لقد قلت: أن نيري هين وحملي خفيف[14]. "فتعالوا إلى يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم"[15] إذن ليس اتباعك صعبًا جدًا. أنا إنما أخدع عندما تصور لي القداسة كشيء مستحيل على ضعفي.

لقد أعطيت خلائقك كلها ما هو ضروري لها وما هو كمالي ولذا لا ينقصها شيء مما هو ضروري لبلوغ غايتها فهل أنا وحدي قليل الحظ حتى إنني لا املك التقديس غزيرة؟ إني أرى اشد الأشياء لزومًا للوجود متوفرة لدى الجميع. فما من أحد تعوزه الماء والهواء ولأرض. وحياتي الروحية، التي هي في عينيك أثمن بكثير من العيش المادي، هل تعوزنا المقومات الضرورية؟ لا أستطيع أن أتصور ذلك.

فيا يسوع! لا أريد أن أستصعب الكمال هذا، بل أريد أن أدنو إليك وأجلب معي نفوسًا كثيرة. فعلمنا يا يسوع ألا نزحم طريقتا بعقبات خيالية.

أرنا يا رب الطريق الموصلة إليك، وأمسك بيدنا. أننا لن نتركك، وسنمضي معك حتى قمة الجبل. وهنالك نستريح فيك يا يسوع، ونفرح مع جوقات من نفوس كريمة سبقتنا.

المقالة الثانية

يكفي كل يوم همه

إن بذل الذات ينحصر في واجب اللحظة الحاضرة. إن تقديس حياة بكاملها يعني تكريس اللحظة الحاضرة لله. فالماضي قد فات، والمستقبل لم يأت بعد، والحاضر وحده واقع وهو يحمل معه واجبًا.

ما أبعد عن المنطق أن يرهق المرء فكره بتصور عديد الأفعال التي يرفعها لله والتضحيات تجدد بلا انقطاع والمصاعب الكثيرة الواجب التغلب عليها. ذلك كله نظرة تجريدية للقداسة من خلال زجاج: المخيلة المكبرة. أما الواقع فهو فعل فرد يقدم لله، وواجب يتمم، وصليب واحد يحمل، وحزن يحتمل، وأحيانًا هي استراحة تؤخذ تحت نظر الله.

إن حصر القداسة في هذا الواجب الحاضر الوحيد فقط يعنى تسهيلها ومجاراة مقاصد الله الذي لم يشأ أن يثقل عاتقنا بحمل لا يمكن رفعه. يقول لنا الرب: عيشوا يومًا فيومًا، لا تهتموا للغد، فالغد يهتم بذاته، "يكفي كل يوم همه"[16].

أنه لا يخدع نفسه كثيرًا ويجعل حياته قاسية من يكدس بواسطة المخيلة، كل الحجارة المبعثرة على الطريق الواحد قطعها، ويركمها جبالاً تمنع المرور، ثم يقول بحزن، وقد عقد يديه: "ما الفائدة من بدء المسير،

---

[14] مت 30:11.

[15] مت 38:11.

[16] مت 34:6.

فلن أستطيع التغلب على مثل هذه العقبات. أما المسافر الحكيم فيعرف أنه سيصادف حجارة طول الطريق، لكنه يعرف أيضًا أن قليلاً من الجهد يمكنه من المرور من غير أن يصطدم بواحدة منها.

أن المخ يلة تؤدى للنفوس خدمات سيئة: فأنها تسلبها نصف السعادة التي تحق لها، وتسمم البقية. هذه المخ يلة تذك ر ال نفس بآلام الماضي وتحييها فيها فتخدعها وتضاعف مرارتها. كذلك المستقبل الذي لا تملكه النفوس بعد، يبعث فيها مخاوف خيالية وأمالاً لا تحقق وتكهنات بعيده عن الصواب.

ألم يقل يسوع بحق "كونوا كالأطفال"[17]؟ فإن الطفل لا يفكر بالماضي وهو أقل تفكيرًا بالمستقبل، حسبه أنه بقرب أمه، يمرح أمام عينيها، ويعرف جيدًا أنها تعنى به.

يا نفسي، عودي طفلة. دعي كل اهتمام بالماضي وكل خوف أو أمل قلق في المستقبل، أبقى بقرب الله في الحاضر، فتصبحي سعيدة وهانئة، وتصرفي كل قوة أرادتك وكل انتباه فكرك إلى واجبك الحاضر.

اللحظ ة الحاضرة وحدها جديرة باهتمامك فهي تحوي كنوزًا ثمينة. بوسعك في كل لحظة أن تكنزي لك كنوزًا للسماء، لأن كل لحظة تحوى الله.

م ا أشد ضد لال كثر النفوس! فأنها تطلب القداسة خارجًا عن ذاتها، تجول في الكون وتغوص في الماضي وتتفحص المستقبل، بينما الكمال بقربها، في اللحظة الحاضرة، بما فيه من خير وغنى. بقربها بحر من القداسة تستطيع الغوص فيه دائمًا.

المقالة الثالثة

على النفس المستسلمة لله أن تتجنب الهموم الباطلة

إن الله لا يطل ب م ن النفس سوى تتميم الواجب الحاضر وينهاها عن كل فكرة قلقة تتعلق بالماضي وع ن كل اهتمام بالمستقبل. وهكذا ينحصر اهتمام النفس في التعرف على إرادة الله كلما بدت وفي التقيد بتلك الإرادة.

إن الله يأخذ بيدي، ويسير بجانبي، فليس على سوى أن أواكبه، من غير ما تطلع إلى الوراء، ولا نظر إلى المستقبل بعين قلقة، فلا أسير أسرع ولا أبطأ من مرشدي الإلهي: "أنت أخذت بيميني وبمشورتك تهديني"[18] وهكذا يصحبني نهاية حياتي.

يج ب عل ى النفس أذن أن تطرح عنها كل قلق وأن تجد في تميز مشيئة الله في كل لحظة. حتى إذا عرفتها تستسلم لله بمحبة وامتثال.

م ا أكثر ما يلذ لله تسهيل نصيبنا في عمل التقديس ومع ذلك تعرف بعض النفوس كيف تخلق لذاتها صع عوبات ف ي ه ذا الأم ر البسيط. أنها مستعدة لتتميم المشيئة الإلهية عندما تراها، ولكن كيف السبيل إلى معرفتها؟ وهكذا يتعلق تفكيرها، تعلقًا محمومًا، بموضوع اللحظة الحاضرة ويتفحصه، ويقلبه، ويفحصه، ويزنه

[17] مت 3:18.

[18] مز 24:72.

لي تحقق م ن أن ه يح وى المشيئة الإلهية. وكلما ازداد قلق هذه النفوس ازداد ارتيابها، وكلما ازداد ارتيابها، ازدادت رغبة في تفحص الأمور.

أي تها النفس الموسوسة المسكينة، تعلمي أن تخدمي الله في سلام وهدوء. إن واجب اللحظة الحاضرة يمت نع عن أن يكون واجبًا عندما لا تعرفينه، فإن لم يدركه عقلك فهو ليس بالنسبة إليك مشيئة الله. ولمثل هذا الفح ص لا تلزمك جهود طويلة، إذ تكفي ثانية واحدة يكفي الوقت الذي يستغرقه إلقاء نظرة على الله، وعندئذ يملـ ى الضـ مير الجـ واب. فـ إن كان إيجابيًا قبلته الإرادة، وان كان سلبيًا تخلت عنه، وإن كان موضوع شك وارتياب تركته من غيران تقلق. فالله عندما يريد أن يعلن لنا أمرًا يفعل ذلك بوضوح.

إن النفوس المسكينة المعرضة للوساوس تضيع أحيانًا وقتًا طويلاً في التساؤل عن أي فعل يرضى الله بالأكث ر. هـ ل يجب تكريس وقت الفراغ للقراءة أم التأمل، للعمل اليدوي أم للدرس؟ أيلذ لله أكثر الغوص في الوحدة أم التحدث بالأشياء الروحية أن يحيا المرء حياة تأمل أم أن يبذل ذاته في خدمة القريب؟.

أي تها الـ نفس المسكينة أن هذه أسئلة باطلة: فليحلها لك معرفك أو مرشدك الروحي. لكن لا تتوقفي ع ندها، بل تممي ما تفرضه عليك اللحظة الحاضرة. فإن لم يكن وهناك شيء مرسوم فافعلي ما يبدو لك حسنًا لأول وهلـ ة، دع ي جانبًا كل فحص وكل قلق. فأول شيء يريده الله هو أن لا تضيع النفس وقتها أو هدوءها الداخلي.

المقالة الرابعة

إن الله يعلم بذاته النفس الحرة

إن النفس الأمينة على استيضاح المشيئة الإلهية في كل لحظة بنظرة بسيطة، تكتسب سهولة عجيبة في تمييـ ز واجبها فتنبهها غريزة سرية أن هذا العمل مرضي لله وأن ذلك هو أقل إرضاء له. هذا التمييز الموحي هـ و ميزة النفس البسيطة، فالله يحب التحدث إلى القلوب المستقيمة، ويناجيها بآلاف الطرق العجيبة. انه يعمل فـ يها عادة بانفعالات سرية، فتحس النفس بأن الله يكون مسرورًا أن هي أقدمت على عمل ما أو قامت بتضحية معيـ نة. وهكـ ذا فهي تبذل ذاتها بلا تردد ولا فحص، وتتمم مشيئة حبيبها. والله يقودها على هذا النحو في كل مشاغلها.

ويدعو الله النفس أحيانًا لتكون أقرب إليه. وهي عندما تسمع هذه الدعوة، تترك كل عمل لا ترسمه لها الطاعـ ة وتسرع إلى قرب يسوع. أنها تعرف أن المعلم الإلهي يروم محادثتها في ذلك اليوم في ألفة اشد، وأن يسر إليها أسراره الإلهية. لكن النفس لا تعرف أن تفسر هذه الغريزة الفائقة الطبيعة التي تدفعها، بل تشعر فقط بتأثيرها وتعرف أنها آتية من الله.

إن سلوكها يظهر أحيانًا غريبًا، لقليلي البصيرة، فينعتها هؤلاء بقلة الفطنة بل بالتهور. أما هي فتدعهم يـ تحدثون بما يشاءون وتواصل سيرها، ساهرة على ألا تناقض أفعالها واجباتها الصريحة، ولا إعلانات مشيئة الله الجلـ ية. وهي كلها أذان لسماع الصوت الداخلي الذي يدعوها ويملى عليها رغبات العلي. هذا الصوت هو كالنسيم العليل يلاطف عند مروره النفس التي تشعر بالتأثير الإلهي فتتهلل وتطالع في الحال.

بالحقيقة، كم يحتوى عالم الله من العجائب! ما أعظم الأسرار التي يعملها الله في النفس الخاضعة لفعله الـ دائم! مـ ا ألـ ذ تلك المناجاة القلبية الدائمة، والنفس قد تخلت عن كل اهتمام يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، لا تعـ يش إلا لهذه اللحظة الحاضرة، متركزة كلها في الله ومنتبهة لصوته ومستسلمة لعمله! لو عرفت النفوس أن تكتفي بهذه الحاجة الوحيدة لكان الله يعمل فيها كلها أمورًا عجيبة.

غيـ ر أن هـ ذا يتطلب هجرًا لعالم من الأفكار يملأ الرأس ولرغائب ومخاوف لا عدد لها تختمر في داخـ ل الكـ ائن المـ رهف الشعور، ولنزعات، ولمودات، ولتعلقات تكبل القلب وتتنازعه من كل جهة، فتنهكه، وتجففـ ه، وتنفره من أمور الله. ذلك يتطلب التخلي عن قيادة ذاتنا بحسب إرشادات فكرنا، ثم أن نلقي على الله كـ ل همومـ نا وأن نطرح جانبًا كل اعتبار يتعلق بكرامتنا، وقصاري القول أن ننسى أنفسنا وان نستسلم لله في اللحظة الحاضرة.

إذ ـه لمحزن أن نرى نفوسًا كثيرة طيبة مدعوة لحياة الألفة مع يسوع يشغلها كثير من الأشياء الباطلة، فتغدو مهتمة، حزينة، متضجرة، قلقة، لأنها لا تريد أن تحصر حياتها في اللحظة الحاضرة التي يعطيها الله أن تحياها.

ماذا يهمك من المستقبل أيتها النفوس البسيطة، هذا المستقبل الذي يعرف الله وحده ويستطيع وحده أن يهتم به؟ ماذا يهمك من الماضي الذي لن تحيى ذكره من بعد، والذي تغاضى الله عنه إن كان سيئًا، وحفظه إن كـ ان جيدًا؟ لم تهمك حوادث الحاضر التي تتعلق بالآخرين ولا تتعلق بك؟ فليس هناك بالنسبة إليك سوى شيء واحـ د مهـ م: هذه اللحظة التي يرسمها الله لك. فقدسيها على قدر استطاعتك بحسب النعم التي يعطيها لك الله، وبحسب القوى الجسدية والأدبية التي أولاك إياها، وبحسب المعرفة التي أحرزتها ثم البثي في هدوء: فقد بلغت قداستك منذ هذه اللحظة.

اخلـ ق فيـ نا أيها الرب قلبًا بسيطًا ومستقيمًا. وأنت أيتها العذراء المباركة، أشركينا في نقاوتك التي لا عيب فيها، وفي تجردك الشامل التام.

المقالة الخامسة

لكي نبذل ذاتنا لله، حسبنا أن نحب

إن واجـ ب تقـ ديس الـ ذات يتلخص، في نظر الله، بإتمام واجبات اللحظة الحاضرة. فمن ذا يستطيع الاعـ تقاد بأن في هذا الطلب الإلهي بعض الغلو؟ ليس تقديسنا عملاً صعبًا على الله. هذه الواجبات مهما كانت بسيطة، يجب أن تتمم فهل أن إتمامها أمر عسير علينا؟

إن الـ تقديس يعنى بذل الذات لله جسدًا وروحًا، وإخضاع الحواس للعقل والعقل للإرادة والإرادة لله، وأن تضـ بط أهواءنا، وأن نقاوم العادات السيئة ونتغلب عليها، وأن نكبح الميول الشريرة، وان نصمد أمام تيار المبادئ الفاسدة وإغراءات العالم، وقصارى القول أن نقاوم، بلا هوادة، أنفسنا والشيطان والعالم فهل هذه المهمة طفيفة، وهل يمكن القول بأن بذل لله أمر سهل؟

إن م ا ي بدو حملاً ثقيلاً لاكتفانا قد خففه الله كثيرًا، إن ما يظهر معقدًا في عمل التقديس، بسيط. جدًا الآن الله نفسه هو صانعه "إن ما يخيفنا بتعدده وتنوعه قد رده الله إلى وحدة عجيبة.

إن الآل ة الإنسانية هي من صنع عامل إلهي، ولذا فهي كاملة بكل أجزائها. وقد وضع الله في وسطها دولابًا رئيسيا هو الإرادة. وهذه تحرك سائر القوى وتوجهها بحسب مرتضاها. فالإرادة، بما أنها أكمل من أي ت ركيب أخ ر، حرة في حركاتها. يتلخص الإنسان كله في الإرادة والإرادة تتلخص بدورها في فعل واحد من أفعالها ا ه و المحـ بة والإرادة تس تطيع أن تشتهي، وتخاف، وترجو، وتيأس وتكره، وتفرح، وتخزن، وهذه الانفع الات كلها هي مظاهر فعل واحد أساسي هو المحبة. حياة الإرادة وحاجتها وميلها الذي لا يقاوم، هو أن تحـ ب. فـ إذا انتظمت المحبة. تكون الإرادة كلها صالحة، والإنسان كله مقدسًا. أما إذا اختلت المحبة فالإرادة تكون كلها فاسدة. الإنسان كله شريرًا.

فتوجيه الحياة إلى الله يعني إذن تنظيم المحبة. وعمل التقديس كله يتوقف على بذل القلب كله لله. كان القـ ديس أوغسطينوس يقول: أحبب وأصنع ما تشاء[19] لأنك إن أحببت الله فلن تعمل إلا أعمال المحبة هاربًا من الشـ ر الـ ذي يهـ دمها ومبتعدًا عن لأخطار التي تعرضها للضياع. وهذا هو السبب الأساسي للوصية الوحيدة: "تحب الرب إلهك بكل قلبك... وقريبك كنفسك"[20].

فعلـ يك إذن، يا نفسي، لتتممي واجبك في اللحظة الحاضرة، أن تبذلي ذاتك لله بمحبة، وأن تسلمي إليه قلـ بك كله، وبعد ذلك أن تتممي العمل الحاضر بإرشاد هذه المحبة، فتحتملي الصليب المفروض عليك وتبتعدي عن الشر الممنوع. ولئن كنت لم تفكري بالله في هذه اللحظة عينها لتبذلي له قلبك، فلا تخافي شيئًا لأنك بذلت له القلب منذ زمن طويل ولم تتراجعي.

فـ تقديس الـ نفس يعنى إذن بذل ذواتنا لله اللحظة الحاضرة بمحبة حارة، والاستسلام له لإتمام مشيئته بحسـ ب قوانا ومداركنا، تاركين له أن يتصرف بخليقته كما يشاء، ومسلمين إليه الماضي والمستقبل، ومكلفينه بتدارك كل شيء وترتيب كل شيء وإصلاح كل شيء.

المقالة السادسة

حسبنا أن نريد المحبة لتكون لنا

لـ يس أجمل ولا أرهب من جيش منظم مؤلف من جنود شجعان، يقودهم ضباط مدربون. إن قوة مثل هذا الجيش ملقاة بيد رجل واحد. فالرئيس يصدر الأوامر، وصداها يتردد بين جميع الضباط حتى يبلغ أذن أخر جندي. إن إرادة واحدة تضبط إرادة ملايين الناس وفكرًا واحدًا يوجه عقولهم.

والإنسـ ان بملكاتـ ه المتنوعة وأهوائه وحواسه مع أفعالها وحركاتها وانفعالاتها التي لا عد لها، يشبه جيشا عظيمًا. وفي داخله يسود ترتيب كامل للتنظيم والأمر. أما القائد الأعلى فهو الإرادة.

---

[19] تعلقًا على 1 يو 7:4.

[20] متى 37:22،38.

تستطيع الإرادة أن تملي أوامرها على كل اتباعها، ولا يلومها لذلك إلا فعل إرادي فينتقل أمرها حالاً حتى إلى أدنى الملكات وينفذ فإن كانت الإرادة أمينة لملكها يكون الجيش كله كذلك، وإن خانت عهده فالجيش كله يقع في يد العدو. ولكي تتمم الإرادة واجبها لا يلزمها إلا أن تبقى في وظيفتها: أن تكون إرادة، أي أن تكون رئيسًا حازمًا يعرف ما عليه أن يفعل ويروم أن يطاع.

يا نفسي! انك تجهلين القوة التي منحك إياها الله، ولم تدركي يومًا القدرة التي تملكين: فإن الله الذي أعطاك الإدارة لتتسلطي بها على سائر الملكات، قد البسها الصفات اللازمة للحكم، فلك أن تستخدميها وتوسعيها وتكملها بالتمرين الدائم والصلاة الخاشعة. فلا تجزعي إذن من الصعوبات التي تعترضك، بل اجعلي الإرادة على رأس جيش الأهواء والعواطف والمشاعر والمخاوف والآمال والهموم التي تكون داخلك وتغذي فيه البلبلة، وبعدئذ لا تهتمي بما أقلقك حتى الآن. لا تتبعي أفكارك ورغباتك وتصورات مخيلتك في مداوراتها التي لا آخر لها. لا تخافي حركات الثورة التي تحاول أثارتها شهواتك الجامحة ولا تعيري انتباها لصخبها، أنها قد تعودت العبث ولا يمكن إخضاعها في يوم واحد. لكن النظام سوف يسود من غير أن تشعري بشرط أن تتركي للإرادة كل سلطانها. ما أعظم أن يعيش المرء بإرادته. ما أبهاه لا يترك نفسه تنقاد للأهواء، وتغيير المزاج، ويحملها موج المخاوف والرغبات والمسرات، وتتحكم بها انفعالات الساعة الحاضرة وإيحاءات الحواس والمبادئ الغريبة! ما أجمل أن يبقى الإنسان ثابتًا كالصخر بينما تزمجر عاصفة الشهوات، ويهدد البحر الهائج بتبديد كل شيء.

هذه، يا نفسي، هي الحياة التي ستحيينها، فالإنسان يتلخص في إرادة والإرادة تركز قدرتها في فعل المحبة. فاحملي إلى إلهك، في كل لحظة. هذا الفعل المضطرم فتكوني قوية كالله نفسه.

المقالة السابعة

إن الله يقابل بذل النفس، ببذل ذاته

تتجلى إرادة الله في كل لحظة بشكل واجب لابد من إتمامه وشر يجب اجتنابه. وصليب حمله، والنفس تجيب في كل آونة من يومها بإثبات طاعتها وبذل ذاتها لله بشغف. في هذا العمل الوحيد يلتقي ويتعانق الخالق والمخلوق فالنفس تستسلم بكاملها لله، والله يعطي ذاته بدوره بلا تحفظ. كل حدث يهيب بالنفس كطيب ثمين. وفي كل مرة يجيب الله بمزيد من الحب والسخاء.

ألا تحرري يا نفس من نطاقك الضيق واسكني ذاتك في الله فإن هذا الإله العظيم، والمحيط الذي لا غور له ولا حدود، يتنازل إلي أن يفيض هو بدوره ويخرج من ذاته ويملأك. الأقانيم الإلهية الثلاثة السامية تروم أن توطد فيك سكناها وتجعل فيك مقام محبتها.

نظرة واحدة من نظراتك يا نفسي قد خلبت قلب الله ودفعته إلى النزول إليك. لقد تممت محبتك باتضاعها وها أن السماء كلها تتويجه إليك، وها هوذا الله نفسه لا يستريح حتى يبذل لك ذاته بوسعه أن ينتظر الحياة الآخرة ليغمرك بحبه. لكن محبته لا تعرف التأجيل.

يا إلهي إن من يراك في هذه اللهفة يخيل إليه انك بحاجة إلى محبتي. انك تنعم عندها تشعر بقلبي يدق بقرب قلبك، وعندما تحدق بناظريك الإلهيين في عينيّ، وعندها تسمعني أناديك: يا أبى.

يا نفسي، استسلمي لمحبة الله ولفيض نعمه. أن حياتك قائمة في الله. إن الأقانيم الثلاثة فيك دومًا، تهتم بك، فابذلي ذاتك لها، واستسلمي لأرادتها ومحبتها.

إن الآب يخلقني ويحفظني، والابن يفتديني وينقيني، والروح القدس يقودني ويقدسني. الآب يحملني بقدرته والابن ينيرني بحكمته، والروح القدس يغنيني بصلاحه.

أيها الأب والابن والروح القدس، الثالوث المغبوط، ينبوع الحياة والحق والمحبة، كن ملكًا عليّ. إن كياني الواهي يفيض حياة وارتياحا عندما يركن إليك، وظلامي يتبدد، وقلبي الجامد يدفأ وينفرج. إن دهمتني الوحدة فلن أخاف، لأنني في صحبة أحن أب واحب أخ واخلص رفيق، وعندي ما أتحدث به معه طيلة قرون. إن داهمني الحزن أو غشى نفسي الشوق المفرط إلى السماء فلن أخاف ذلك، لأن فيّ نبع سعادة، لأن في السماء فعلام أحسد الملائكة والقديسين؟ بوسعي أن احب الله إلى الغاية وبلا توقف: أليست المحبة هي السماء؟

المقالة الثامنة

بذل الذات يحوي ممارسة كل الفضائل

إن بذل الذات يجتذب الله إلى النفس ويجتذب معه كل كنوز السماء. وهذا البذل عينه يسلم إلى الله الإنسان كله نفسه وجسده، وكل قواهما، وكل أفعالهما دون استثناء. ومتى صدر العطاء هذا، واستمر قائمًا، لا يبقى للنفس شيء تعطيه لله. أن هذا العطاء على بساطته هو ممارسة كبرى لأسمى الفضائل.

أنا إيمان حار جدًا، تستسلم النفس لله بلا تحفظ ولا رجوع وتؤمن أنه سيدها المطلق، وفاديها ومقدسها.

هو إثبات رجاء مطلق بالله، به تعطى النفس ذاتها لله طارحة كل اهتماماتها بين يديه، ناسية حاجاتها، مظهرة أن لا حد لثقتها بالذي تستسلم له. أنها مستعدة في كل وقت أن تضحي له كإبراهيم، بأعز شيء لديها. ومثله تعرف أن خلاصه وعونه يأتيان حتى عندما يخيل للمرء بأنه لم يعد هناك من نجاة.

إن بذل الذات هو محبة كاملة، هو في جوهره. محبة. فالمحبة هي التي تمليه، وتصوغه، وتعطيه صفاءه وثوابه، وهي مقياس حرارته وقوته.

آه! ما أحلى حياة نفس بذلت ذاتها لله! أنها كالسيرافيم لا شغل لها سوى المحبة كساؤها وغذاؤها وتنفسها.

إن بذل الذات هو ممارسة لسائر الفضائل. فالنفس التي تستسلم لله مستعدة في كل أن تمارسها كلها من غير أن تتعلق بواحدة منها علي وجه التخصيص، وحالما يطلب الله منها ذلك فهي تمارسها بسخاء. هي متواضعة فتعرف جيدًا أنها، وأن أعطت كل شيء لله، تبقى "عبدة بطالة". أنها تمارس الأمانة، وتتقبل بفرح كل الصلبان التي يقدمها لها يسوع. أنها نقية تعيش على هذه الأرض، متجردة من كل تعلق بالملذات الدنيوية.هي

غ يور تخصـ ص كـ ل أوقات حياتها لمجد الله وشرف اسمه. وهي سخية قد أنكرت ذاتها إلى الأبد وأسلمتها بكاملها في كل لحظة، فما عادت تفكر إلا في إرضاء يسوع.

إن معلم نا الصـ الح قد لخص الكمال في هذا العمل الوحيد بذل الذات في البرهة الحاضرة. إن بذل الـ ذات هـ ذا لقاء بين الله والنفس انه شركة لا تنقطع، انه الكمال في أسمى درجة يستطيع الضعف البشري أن يصبو إليها.

بـ بذل الـ ذات هـ ذا تقدس كل الصالحين الذين عاشوا على الأرض قبل المسيح. لم تكن لديهم معرفة بشـ رية بالقداسـ ة، ولـ م تكن لديهم الكتب الروحية لتحصيل هذه المعرفة لكن وحي الروح القدس كان يكفيهم ويغنيهم على كل شيء.

بـ بذل الـ ذات هـ ذا تقـ دمت الـ نفوس التي عاشت بعد مجيء المخلص: الرسل والشهداء والعذارى والمعتـ رفون وذلـ ك العـ دد الغفيـ ر من القديسين والقديسات الذي يجهلهم جمهور الشعب، الذين تكرم السماء فضائلهم وتمجدها.

ببذل الذات هذا أيضًا تتقدس نفوس النخبة التي تتبع الآن يسوع على الأرض. إن أكثرها مجهول عند البشـ ر، معروف عند الله وحده، لكنها كلها تواصل في العزلة والخفاء رسم صورة المسيح في ذاتها. حياة هذه النخـ بة بسيطة عظيمة مترفعة على الاهتمامات الأرضية، بعيدة عن ضجة العالم وبلبلته أنها تتمتع بهدوء بالها والله يسر بأن يتم عجائبه فيها.

القسم الثاني
ممارسة تسليم الذات لله
الفصل الأولى
ممارسة تسليم الذات بوجه عام
المقالة الأولى
علام يقوم بذل الذات؟

إن علـ م الحياة الروحية ليس في معرفة واجب بذل الذات لله، بل هو على الأخص في معرفة طريقة ممارسة بذل الذات ولحسن حظ النفس، ليس في هذه الممارسة أي سر يخفي عليها.

إن بـ ذل الذات هو فعل من أفعال الإرادة الحرة. هو اندفاع القلب المستسلم بكامله ليسوع. وهو شغل الإرادة تساعدها النعمة. ماذا كانت العواطف مضبوطة فأنها تصبح مساعدًا نافعًا.

إن النفس ليست بحاجة لأن تشعر بالاكتفاء أو الارتياح عندما تفكر بأنها استسلمت لله.

يـ ا نفسـ ي! تعلمـ ي أن تعيشـ ي بالإرادة، ولا تدعي العواطف وما تولد من أهواء تقودك كالأعمى. استسـ لمي لله بإرادتك، وهذا الفعل روحي بكامله، ولا يحتاج أن يلبس عبارات، ويحوط باعتبارات جميلة، وان يجعل محسوسًا بأقوال.

إن بذل الذات هو لقاء بين الله والنفس. وهذا اللقاء يتم في صميم الإرادة بمحبة فائقة.

لننـ زع من الحياة الروحية تعقيدهما، ولنردها إلى مفهومها الصحيح فتظهر لنا سهلة وغنية. إن الله لا يحرّم ما هو عاطفي إذ كثيرًا ما يمنح التعزية ويحرك القلب. وإنما يريد فقط ألا تعلق على ذلك أية أهمية، وألا نتصور في أيام الحزن والظلام أنه قد حجب عن النفس حنوه وعنايته الأبوية.

المقالة الثانية
يجب أن تبذل النفس بكل ما بوسعها من الكمال

لقـ د جعل الله القداسة في متناول الطبيعة البشرية فبذل الذات هو اندفاع قلب محب نحو أب هو أفضل الأباء. فعلى النفس إذن أن تركز كل جهودها في بذل الذات وأن تقصي عنها كل اهتمام أخر.

لقد أراد يسوع أن تتركز طبيعتنا الإنسانية وتتجمع بكل قواها في المحبة. فلنكتف بتسليم ذاتنا إليه في كل لحظة بمحبة.

ومتى طرحت النفس عنها هكذا كل اهتمام آخر عليها أن تبذل ذاتها بكل ما بوسعها من الكمال وأن تجعل فيه كلى قوة وكل نقاوة.

بوسع أرادتنا أن نحب محبة حارة جدًا، فغاية وجودها الوحيدة هي أن تحب. لقد قيل عن الله أنه محبة، هذا هو جوهره. لكن لا يمكن للإرادة أن تكون محبة في جوهوها، فهي ليست إلا القدرة على المحبة، غير أن كل ما أعطاها الله من إمكانيات يستدعى المحبة.

إن القلب البشرى هاوية لا قرار لها وحوض لا حواف له يتطلب دائمًا مقدارًا أعظم من المحبة. وكلما امتلأ شعر أنه فارغ، وكلما أراد أن يروى عطشه، أزداد عطشًا إلى المحبة.

أننا ندرك بصعوبة هذه القوة المحبة الخارقة التي حبا الله بها قلبنا. إننا نحب في حياتنا العادية، وشدة هذا الحب تظهر في ساعات الفراق فقط عندما يكون القلب على أهبة فقدان الشيء الذي كان يحضنه. وقد يذهب هذا الحب حتى اليأس، وقد يسبب الموت. "فإن المحبة قوية كالموت"[21].

ما أقوى المحبة الكامنة في قلبنا! لكننا نوزعها على أمور لا عد لها. فكل ما يروقنا نعلق به، وكل ما يبدو لنا جميلاً وحسناً يأسر قلبنا ويقيده. وهكذا نبذر كنوز المحبة المتكدسة في داخلنا.

إن الله يدعونا إلى أن نفتح قلبنا واسعًا افتح فمك وأنا املأه[22] ألا وسع رغائبك، وسع قلبك، أبعد حدوده ثم ادعني إليك، فأملأك كبحر زاخر.

على النفس أن تنقى سلامها لله من كل امتزاج بمحبة الذات، فمحبة الله ذهب خالص وأقل امتزاج بعنصر غريب يكدر لمعانه وجماله.

يجب على المرء، عندما يريد أن يحب الله، أن تكون لديه الشجاعة الكافية لينسى ذاته ويستسلم إليه تعالى بلا حساب. وعلى النفس أن تغوص في الله كحجر يرمى في اللجة. ومن المعلوم جيدًا أن هذا الحجر لن يعود أبدًا إلى سطح الماء، وانه قد ضاع إلى الأبد عن استعمال البشر. كذلك النفس ترتمي في أحضان الله مستسلمة لعنايته ولعمله.

وهكذا تسعى النفس إلى أن تعطى فعلها كل ما تستطيع من حرارة وإخلاص، وعمل التجديد والتنقية هذا يتم داخل النفس في سكينة، من غير إجهاد ولا إعياء.

المقالة الثالثة

ممارسة بذل الذات

توضع أسس البناء الروحي عندما تبذل النفس المخلصة ذاتها لله بمحبة سخية. ثم ينبغي البناء أعنى: تجديد بذل الذات، بتواتر. هذه هي ممارسة بذل الذات. إنها تتم بالبساطة والوداعة الهادئة عينها التي تتمم بها النفس المستسلمة لله واجباتها كلها.

---

[21] نشيد الأناشيد 6:8.

[22] مز 11:80.

فمنذ الصباح، عند النهوض من النوم، تتجه النفس إلى الله وتسلم إليه كيانها كله، راجية منه أن يتصرف به بحسب ما يشاء. وهذا الفعل يقوم عندها مقام صلوات طويلة: إنه قبول المحب لكل ما سيقع له طول النهار من حلو ومر، من هين وشاق. انه استعداد فرح لعمل كل شيء وتحمله في سبيل إرضاء الله.

وتجتهد النفس بأن تستقر في هذا الاستعداد الأساسي وتعيد بذلها المفضل حيناً بعد أخر. إذ تخشع على هذا النحو أمام الله تتصرف إلى الصلاة والعمل بحسب مقتضيات مهنتها. أنها تبقى سيدة ذاتها خلال أشغالها فتعمل بلا بطء ولا تسرع، ولا تدع مجالاً ليتسلط عيها الشوق إلى الانتهاء من هذه الأشغال بسرعة، ولا الرغبة في اكتساب تقدير الآخرين، ولا السرور الذي تجده في شغلها.

أنها ليست لذاتها لكونها قد استسلمت بكاملها إلى سيدها الصالح. وليست أيضًا مستعبدة لعملها لأن العمل ليس غاية بلى وسيلة فقط.

هكذا تهتم النفس تباعًا بواجباتها المختلفة وهي متسلطة على ذاتها تمامًا، وبقلب حر غير مرتبك، فتسمح لها هذه الحرية الداخلية بمباشرة كل عمل بروح منفتح وانتباه متواصل بلا تعب أو تسرع وبلا تراخ أو تباطؤ.

إن أنشط الرجال هم الذين تبدو عليهم علامات النشاط أقل ما تبدو، أما القلقون والمتشاغلون فهم يكادون لا يعملون شيئًا. إنهم يبدءون لكنهم لا يتمون. وبعد العمل يكون قلبهم مضطربًا وعقلهم مشغولاً وعاجزًا عن التفكير بالله أما النفس البسيطة فهي، بعكس ذلك، تقتدي بالله الذي يعمل بهدوء.

هكذا تقضي النفس يومها متسلحة ببذل ذاتها لله. أمر تعيده في كل عمل تعمله وفي كل صعوبة تعترضها وفي كل ألم يحدث لها وفي كل سرور أو حزن تشعر به.

إن لها طريقتها الخاصة في الصمود للتجارب وإبعاد الملهيات فهي عندما تراها لا تطردها حالاً، وإنما تهملها وتكتفي بأن تردد: يا يسوع، إنني لك بكاملي فاعني وهى تتقبل كذلك بكل محبة المعاكسات والصلبان والآلام اليومية.

وأوقات الراحة لا تقطع اتصال النفس بالله فهي تقضيها بقلب حر عارفة أن الله يريدها لكنها لا تستسلم فيها لسرور بطل ومفرط. فكل شيء معتدل. وكذلك وجبات الطعام، فهي تتناولها غير مهتمة بنوع لأطعمة: ألا يأتيها كل شيء من يد الله أبيها؟ فلا تنتبه إلا لهذا الأب الحنون الذي يحبها بحنو، ولا تفكر بسواه.

وعندما يأتي المساء تتمتم النفس في بذل ذات أرق– إن يمكن ذلك– وابلغ، لكي تعوض عن أخطائها وما أهملته في نهارها المنطوي، وبعدئذ تنام بسلام تحت أعين المعلم الصالح الذي يسهر عيها.

المقالة الرابعة
المصاعب التي تلاقيها النفس
في ممارسة تسليم الذات

تتعاقب الأيام والشهور والسنوات في ممارسة بذل الذات، رتيبة في ظاهرها، لكنها في الواقع مملوءة تنوعًا. الأساس يبقى هو هو: البذل، لكن الله رسم على هذا الأساس الواحد صورة ألوانها غير متناهية في تنوعها.

لا ريب في أن كل الأيام لا تتشابه. فأحياناً تكون النفس كلها يقظة في محبتها. كل شيء يكون لها سهلاً، كل شيء يملؤها نشوة. فتشعر أنها محمولة في الله كقشة خفيفة. وأحياناً أخرى تجر ذاتها بصعوبة وتحس بأنها عبء على ذاتها وعلى الآخرين، وأنها مقيدة بالأرض وأفكارها لا ترتفع إلا بصعوبة، ثم لا تلبث أن تسقط ككتلة ثقيلة.

إنه من السهل عيها نسبيًا أن تبذل ذاتها لله وقت الصلاة. لكنها تحس بالتعب وقت العمل وفي تتابع الواجبات اليومية. إن عذابها الكبير يتأتى عن عجزها في ذكر حضور الله. فكل شيء معه، يكون عذبًا وهيناً. ولكن عندها تنتهي الصلاة تحاصر النفس الملهيات والمشاكل العديدة والهموم، فتشغلها وتجرفها في تيارها.

مسكينة هذه النفس... لكن لها عزاء رغم هذا، فيسوع يطلب شيئًا واحدًا هو أن تجدد بذلها عندما تفتكر به. فلتذهب النفس إذن إلى عملها بقلب خال مصممة أن لا تفتش فيه عن لذة ذاتية، بل عند تتميم المشيئة الإلهية. ومشيئة الله هذه تشمل الشواغل التي تفرضها الطاعة والظروف الاجتماعية والحاجة واللياقة. إن للنفس المستسلمة لله طموحًا مقدسًا إلى تتميم اصغر واجباتها بدقة. أنها ترى في كل شيء مسرة أبيها السماوي، وهي تحس بأنها ترتكب خطيئة لا تغفر إن غيرت بإرادتها الذاتية أدنى شيء من الترتيبات الإلهية بشأنها. وهي تفتش بفضول عن معرفة ما يطلبه الله من الآخرين، فليس لها إلا نظرة واحدة، وهذه النظرة متجهة بكاملها نحو واجبها، وليس لها إلا بغية واحدة هي أن تتمم جيدًا هذا الواجب.

إن العمل هو كالسر الذي تتقبل فيه النفس السيد المسيح، إنه الحجاب الذي يخفي وراءه السيد حضوره الحقيقي والقلب البسيط يمزق هذا الحجاب ويرتمي بين ذراعيّ سيده.

كل عمل يتمم على هذا النحو، هو بذل ذات جديد لله. والنفس المؤمنة تتقدم بلا انقطاع في هذا الطريق المؤدي إلى الكمال ومع مر الزمن، ومن غير أن تلاحظ ذلك، يتحول فيها كل شيء وينالاه، فيسوع يبذل ذاته بقدر ما تستسلم النفس إليه، إنه، يضع ذاته بديلاً عن النفس وينزع عنها عيوبها ويزينها بفضائله الخاصة.

يا يسوع، أنى لا أريد أن اكتفي بان أقدم لك مرة واحدة بذل نفسي الكامل، بل أريد أن اجعل من هذا البذل أساس كل حياتي وشغلها، ففي هذا كمالي.

المقالة الخامسة

التعود علي بذل الذات

إن الطبيعة تستلزم وقتًا طويلاً لتنضج ثمرة فقط. والله يستعمل وقتًا أطول لينضج في النفس ثمرة لقداسة.

بعد برد الشتاء، وتحت تأثير أوائل أشعة شمس الربيع، يمتلئ البرعم بالعصارة ثم يتفتح زهرة جميلة. لكن حياة الزهرة قصيرة عابرة لا تلبث أن تسقط فتسمح للثمرة بتكوين نواتها الأولى. وبهذا يبدأ عمل نمو وتكوين طويل في ظروف صعبة: فعلى الثمرة أن تتحمل الحر والبرد، الصحو والشتاء، وأحياناً يظهر أن كل العناصر تتحالف ضدها لتنتزعها من الغصن الذي يحملها ويغذيها بعصارته.

هذا هو عمل تكوين الثمرة الشاق الطويل وهو يشبه بذل الذات تمارسه النفس طويلاً. وفي أحوال شتى، تحت أشعة الشمس الإلهية المحببة. عند زيارة المعلم الإلهي، كما في وسط العواصف والأمطار، وتحت وطأة ريح الشمال وفي أيام الصيف حيث يبدو كل شيء وكأنه يتأمر لإرهاقنا وتحطيم صبرنا.

لكن هذا كله حسن ومفيد. فالفضيلة تتقوى هكذا تدريجيًا، والثمرة تبلغ نموها التام، وتكسب عطرها العذب ولونها البهج وطعمها اللذيذ.

وأخيرًا يأتي الخريف، فيزداد صفاء السماء وتخف حدة الشمس: هذا أوان الحصاد. وكذلك النفس التي بلغت هي أيضً ا خريفها الروحي، تظهر أحيانًا أقل اضطرامًا بمحبة الله مما كانت عليه في أيام الصيف المشمسة، بيد أنها قد تعدت منذ زمن طويل حقبة النمو الصعبة. لقد انتهت المرحلة البطيئة والشاقة في اتحادها بالله، وهي الآن تتمتع به. هذا هو بذل الذات الذي أضحى لديها حالة عادية هنيئة.

فالنفس ترجع إلى الله، في كل ظرف، بسهولة وبساطة، وتتمم كل أعمالها بقبول وبلا تسرع، تحت نظره الإلهي. لكنها لا تتميز عن النفوس الأخرى، فهي لا تنفرد ولا تصنع أي شيء غير اعتيادي من تلقاء نفسها ذاتهما كما أنها لا ترتبك لأنها كلها لله. هي تكتفي بإتمام مشيئة الله ببساطة وبلا تصنع أنها أنيسة وطيعة، لكنها لا ترتبط بشيء أبدًا ولا تؤسر: فيسوع لا يسمح بذلك لأنها ملكه هو. أنها تعيش متخفية بقدر ما يريد يسوع، لا كثر ولا أقل. وحدسها يدفعها نحو الحياة المتواضعة المجهولة المتوارية لأنها تجد في الخلوة ينابيع أكثر عذوبة لتروى العطش الذي يعذبها.

لكن هذه النفس البسيطة والمجهولة هكذا، التي قلما يقدرها العالم، تحيا في الحقيقة فوق الأحداث الدنيوية. حياتها تحليق نسر في أجواء الله الواسعة، وكلما اخترقت هذه الأجواء رأت لأفق يتسع أمامها دون توقف: إن عليها إن تتجاوز اللانهاية.

يا لها من حياة مغبوطة ويا له من توقان مقدس! ما أسمى حياة الاتحاد هذه. إنما ثمرة بذل الذات المستمر، التي تجنيها النفس البسيطة باجتهادها وجدها.

المقالة السادسة

بلوغ النفس الكمال في ممارسة بذل الذات

إن حياة الإنسان هي سلسلة لا تنقطع من الواجبات، هي تعاقب حوادث مبهجة ومحزنة.

العقل البشرى لا يرى إلا الحاضر، أما الله فيحيط بمجمل الأحداث التي تؤلف الحياة بكاملها. وهو قد سبق فرتب تفاصيلها كلها، وحدد كل لأوقات مازجًا الهينات بالمضنيات، والأفراح بالأحزان، ونجاح المساعي

بالفشل. وحدد للحياة دوامها وغايتها وكل شيء في مقاصده الإلهية يجب أن يؤول إلى مجده العظيم وتقديس مختاريه.

والنفس البسيطة التي أكتسب بكثرة الممارسة عادة بذل الذات، تستسلم لقيادة الله في كل حوادث الحياة، وهي إذ تجهل المستقبل ولا تريد أن تعرف عند شيئًا. تكتفي بأن تمسك بيد الله وترافق سيدها طيلة نهارها. إنها لا تعيّن لدليلها الطريق ولا تفرض عليه مواقف الاستراحة، فذلك كله من شأن الله. أما دورها هي فهو لن تتمسك باليد التي تقودها وتمضي في سيرها: أنها تعرف أن الله سيد الزمان والحوادث وانه سيبلغ المصير في الساعة التي سبق فحددها.

والنفس التي يقودها الله في الحياة لا تدهش لشيء. وكثيرًا ما لا تفهم شيئًا من الحوادث المتتابعة حولها ولا من التغيرات الحاصلة فيها، فلا تهتم لجهلها هذا إذ تعرف أن بيد الله مفتاح وقائع التاريخ جميعها وتفاصيل حياة كل إنسان. لقد علمتها الخبرة أن بعض الحوادث التي لا أهمية لها في الظاهر حدد أن يكون لهما اعظم النتائج، وان حادثًا لا أهمية ظاهرية له قد أراده الله ليجنبها خطرًا ما. وهكذا فهي لا تحكم على شيء بأنه تافه أو قليل الأهمية في حياتها، كما أنها تتقبل أقل الواجبات وابسط الحوادث وأصغر الصلبان بعظيم الاحترام، وعميق المحبة. فهي تعرف أن هذه كلها بمثابة كسرات من القربان المقدس تحوي، على صغرها، ذات الله الكاملة.

إنها لا تميّز بين الواجبات التي عليها أن تتممها، والصلبان التي عليها أن تحملها. فتتقبل هذه وتهمل تلك. لأن لها كلها قيمة واحدة أمام الله. النفس البسيطة لا تتشكى أبدًا لأنها لا ترى مَنْ أو ما يمكنها أن تتشكى منه كل شيء فائض لديها والله يأتيها مع كل برهة مغدقًا نعمه غير المحدودة.

أنها لا تتشكى من أن الوقت ينقصها لتتفرغ للصلاة فكل شيء بالنسبة إليها هو وسيلة لتتحد بالله. أنها لا تتذمر من المعاكسة التي تعترضها ظلمًا، فهذه المعاكسة تدخيل في مقاصد الله. أنها لا تلوم الآخرين لا تنتقد مسلكهم لأنها لا تعرف نياتهم. أنها تكتفي بتتميم واجبها من غير أن تبتغى بإفراط نجاح جهودها.

كثيرًا ما تضطرب أفضل النفوس عندما ترى عقم عملها الذي أقدمت عليه بخلوص نية لمجد الله، فتتحسر على هذا الإخفاق ولا تتعزى إلا بصعوبة أما النفس الروحية حقًا فلا تقع في هذا الانحراف، لأنها تعرف أن الله كثيرًا ما يريد الجهد والتعب لا النجاح. فلا نغتمن لإخفاق يبدو معاكسًا لمقاصد الله، فأفكار الله أوسع من أفكارنا، وهي تشمل الخليقة كلها وتمتد إلى الأبد.

لعمري أن حياة كهذه لمليئة بمفاتن إلهية! فاشرعي يا نفسي منذ الآن في أن تحييها، لقد قدمت ذاتك لله واستسلمت له محبة فيه، فرافقي الآن دليلك خلال واجبات النهار وحوادثه وأتعابه كلها. اكتفي بان تحبيه تقبلي ما يعطيك إياه. أتممي ما يأمرك به، احملي الصلبان التي يرسلها لك، ثم اتركي له الحرية ليصنع فيك وبك كل ما يريده. فقداستك مضمونة، وكذلك سعادتك.

يا مريم الأم الحنون، إني أحبك بقدر ما يستطيع قلبي المحبة وأريد أن أبقى قربك دائمًا كيعقوب قرب أمه. فيا رفيقتي السماوية علميني سر إرضاء أبى حتى يباركني ويقدسني.

المقالة السابعة

بذل الذات والهفوات العارضة

إن الـ نفس قلـ يلة الخبرة تظن أنها تتحرر من كل خطيئة، منذ بذل ذاتها لله، فتغضب أو تقنط عندما تلحظ ضعفها، لذلك يجب أن يجمح بين ممارسة بذل الذات الإيجابية وما يمكن أن يسمي "ممارسته السلبية".

لا جُـ رم أنه ليس هنالك شيء معاكس لبذل الذات أكثر من الخطيئة فإن الخطيئة هي محبة الذات غير المرتبة، هي الأنانية، ومع ذلك فإن النفوس التي ألفت بذل ذاتها ليسوع تقترف الهفوات. ولكن التناقض هنا ليس إلا ظاهريًا، وهذا ما يهم أن تفهمه لسلام النفس.

هـ ناك، كمـ ا يقول القديس أوغسطينوس، حبان يتنازعان السلطان على النفس: حب الله وحب الذات. وحب الله حتى الازدراء بالذات. هو الحب الكامل أما حب الذات المفرط حتى كره الله فهو الخطيئة المميتة هو تهديم عرش الله في القلب.

وعندما يسود الله في النفس فهو قادر على سحق عدوه حب الذات. لكنه يكتفي بأن يقوى عليه ويتركه خاضـ عًا لسلطانه. فالله لا يريد أن يختفي حب الذات دفعة واحدة من القلب الذي استولى عليه هو بل يسمح له بان يبقى عائشًا فيه ولكن في حالة عبودية ومذلة. والله يتصرف هكذا لأسباب كثيرة يريدنا أن نتبين بعضها.

انه لمفيد أن يسكن العدو بجانب أولاد الله.

فالعـ دو المهدد والمستعد دائمًا للهجوم يضطر النفس إلى السهر والنفس تغفر على إهمال رخي، إن لم يكن لديها جهاد تقوم به. وعندئذ أين تكون قوة الفضيلة؟ ولكن ما دام هنالك حرب فالنفس تضعف أحيانًا وعندئذ تقـ ع فـ ي الخطيـ ئة فالخطيـ ئة هي الشرط اللازم لهذه المعركة؟ الدائمة التي جعل الله الإنسان فيها على هذه الأرض. لأن الله إذا أراد لـ نا العراك وجب أن يسمح بالسقوط، ومجده يكون بأن يستخلص الخير من الشر ولا يدع للعدو إلا انتصارات وقتية عابرة.

ومـ ن جهـ ة ثانية، فالسماح بوقوع الشر هو، في مقاصد الله، أفضل صيانة للتواضع. فالنفس البشرية تـ نخدع كثيـ رًا فـ ي أمر استحقاقها الشخصي وما عدا القديسين لا يعدل أحد في هذا الصدد فالنفس بحاجة إلى اختبارات يومية متكررة، وهي لا تكف إلا مع الزمن عن أن تنسب إلى ذاتها استحقاقًا ليس لها. ومع ذلك يجب أن يذكرها الله في كل برهة بعجزها التام عن بلوغ الخير بدون نعمته.

تحـ ت ظواهر عدم الكمال هذه يخفي الله الكمالات الحقيقية التي يبثها في النفس، والتي ينميها فيها كل يوم تارة عن غير علم منها وطورًا بمشاركتها السخية.

وعلى كل حال، لا تتأصل هذه الهفوات في النفس التي بذلت ذاتها لله. بل كلما نبتت الأعشاب الرديئة اقتلعت، أما النبتة الصالحة فتكبر وتنمو بلا توقف.

وهكـ ذا تمحـ و كـ ل يوم بالانسحاق والتوبة، كل هذه الهفوات الصغيرة، التي يسامحنا الله عنها أيضًا فتتأصل في المحبة وبذل الذات ويغمرنا فيض من النعمة الإلهية.

المقالة الثامنة

العقبة الكبرى في حياة بذل الذات لله

إن في حياة البذل عقبة كبرى تصطدم بها بعض النفوس وتغرق وهذه العقبة هي زهو خفي، كبرياء مقنع تعمي النفس وتجعلها تبالغ في تقدير صلاحها، مما يولد فيها الغيظ والحنق بعد سقطاتها.

أه ما أخبث هذا السم! انه يمتزج بكياننا وينتشر في الجسم كله. هذا السم لا يقتل عادة، بل يضعف، وينهك. فتحس النفس التي يجتاحها بأنها تبذل، لكنها لا تعرف السبب.

وتم ر السنون الأولى من الحياة الروحية في حرارة كبيرة. وتحاول النفس بحماسة تحطيم عيوبها واكتساب الفضائل، وتكثر من تشديد العزم وامتحان القلب وتذكي حماسها بالتفكير في أنها ستصبح بعد مدة كاملة ويلا خطيئة وتمر الأشهر. وتتابع السنون وتبقى القرارات عينها والجهود عينها ويبقى الضعف عينه. ويتكون في قرارة النفس مع الزمن وحزن وضعف ثقة بالله، وتفقد النفس رجاءها في الوصول إلى القداسة. وتظهر لها هفواتها المتكررة كعقبة كؤود تحول دون بلوغها الكمال ويظهر لها ما نوته من بلوغ القداسة في شبابها الروحي كأحلام بعيدة: لقد تبددت أحلامها وأضحت تقول: إن القداسة ليست لأمثالي.

إذ لك لمخطئة أيتها النفس المسكينة. لقد جعلت القداسة لك، ولا ينقصك، لتكوني كاملة إلا شيء واحد: أن تعرفي ذاتك أمام الله كما أنت. انك في كل حين، ضعيفة جدًا عرضة للخطيئة فاعترفي بهذا بكل رضى، إذ لك عاجزة عن كل خير فأقري بهذا ببساطة أمام الله. ستخطئين كل يوم مع أنك تقصدين بإخلاص وصدق ألا تعودي إلى السقوط فارتضي بما قسم لك بشجاعة.

أنه لمن أعظم أسرار الحياة الروحية ألا تضطرب النفس بعد سقطاتها لكن هذا سر لا يستطيع غير الله أن يبثه في النفس فهر يفترض فيها، من جهة، معرفة فائقة لضعفه الإرادة ولإفراط تقلب الفكر البشرى. ويفترض فيها، من جهة أخرى، خبرة شخصية عميقة لصلاح الله الذي لا يكل، ولحنانه نحو خليقته الصغيرة الذي لا ينفد. أن في يسوع من الصلاح والحنان والتنازل ما لا يتيح لأي ضعف ولأية خطيئة أن تحوله عن نفس مخلصة.

كلنا نسير على هذه الأرض كمنفيين، نحو وطننا السماوي، والطريق طويلة مملة. فهل هناك من عجب يشل العياء أحياناً سيرنا أو أن يصرعنا في الطريق؟ وأحياناً تجذب الأشياء التي يصادفهما نظرنا طوال الطريق انتباهنا كثيرًا. وتلهنا عن سيرنا إلى الأمام، مع ذلك لا نتوقف أبدًا عن السير، ولا تراودنا أبدًا فكرة الرجوع إلى الخلف.

كان طوبيا الفتى، في سيره إلى بلاد الماديين، يتوقف أحياناً في الطريق فيستريح ويروى عطشه على ضفاف البحيرات التي يمر لها. ولعل هذه الاستراحات قد أخرته طويلاً في سيره، وعرضته للأخطار، لكن الملاك كان ساهرًا يتدارك قلة تبصره.

كذلك يساعد الله النفوس الطيبة. انه يتفحص أعماق القلوب ويرى فيها لإرادة الصادقة بأن تكون النفس له، فيغفر لها، راضيًا، هفواتها العارضة نتيجة ضعفها.

إن كبرياءنا تحول دون فهمنا كيف يمكن للإرادة أن تكون صادقة في وعودها لله بأن تكون أمينة له ثم تقع بعد برهة في خطيئتها السابقة.

وهذه الكبرياء تعمينا أيضًا عن الفهم أن تلك الوعود وتلك السقطات قد تتكرر حتى أخر حياتنا دون أن تنقص من رحمة يسوع وإشفاقه علي ضعف البشر.

يا يسوع ما أقل معرفتنا لسر تقديس النفوس! نحن نظن أن لنا فيه قسطًا وافرًا! لكننا، وا أسفاه، لا نسهم فيه إلا باعترافنا بتقلبنا الدائم، من غير أن تتعب أبدًا من سقطاتنا. وأما الباقي فهو عملك.

الفصل الثاني
ممارسة التسليم وقت الشواغل المختلفة

المقالة الأولى
ممارسة بذل الذات وقت الصلاة

يا نفسي، أتبعي الآن يسوع في مختلف الأفعال اليومية، فهو يعلمك أن تتمميها بطريقة مقدسة. أدخلي في أثره محراب الصلاة السري فتشربي فيه كؤوس المحبة مترعة.

يـ ا إلـ ه الجلال! كيف تستطيع خليقة هزيلة أن تدنو منك، وأن تتحدث معك في خلوة مقدسة قلبًا إلى قلب، وان تحس إنك تريح ناظريك في ناظريها، الست أنت ذاك الإله العظيم الذي تنحني الملائكة أمامه باحترام وهي تستر وجوهها، ويجثوا أمامه قديسو السماء وهم يرتجفون ويرددون: قدوس قدوس، قدوس هو السيد رب القوات؟

كـ يف أستطيع أنا الرماد والتراب أن كلم سيدي والهي؟ أن اليهود لم يكونوا يجرءون أن يرفعوا، في الصـ حراء، عيونهم نحو الله، بل كانوا ينتدبون موسى ليتوسل من أجلهم، وفي تلك الأثناء كانوا ينتظرون عند أسفل جبل سيناء وهم يرتجفون ويكادون يموتون رعدة.

وبعـ د هذا أجرؤ أنا على الدخول إلى قدسك والمثول أمام عرشك، ومخاطبتك بدالة؟ فهل خففت لمعان جلالك أو تساهلت بحقوقك السامية؟

– كلا: فإنك إله الأبد، ملك الملوك، إله الأجناد! السماوية، وعلى كل خليقة أن تعبدك معفرة رأسها في التراب.

فعندما تمثلين أمام إلهك. لا تنسى، يا نفسي! واجب الاحترام والخضوع هذا. وأعلمي أيضًا أن الله لا حد لصلاحه.

إن اسـ تير لمـ ا مـ ثلت أمام احشويروش الجالس على عرشه في بهاء جلاله الملكي، أخذت ترتجف احتـ رامًا وكاد يغمى عليها! لكن الملك الذي تسلط عليه جمالها مد إليها صولجانه الذهبي وقربها إليه بلطف ثم قال لها بمحبة: إن الأمر الذي يخضع له الآخرون لا تخضعين أنت له.

فيا لامتياز النفس البسيطة: أنها تدخل مساكن الملك باحترام عظيم ولا شك، ولكن بجرأة الأطفال. هي تعرف امتيازها وتستطيع أن تدنو منه وان تحدثه بألفة وأن تجلس عند قدميه وان تحبه.

ولكـ ن كـ يف يمكـ ن التحدث مع هذا الضرر السامي؟ إن النفس لا تعرف إلا شيئا واحدًا وليس لديها سـ وى فعـ ل واحد، هو بذل الذات. كيف نقوم بكل ما تقضيه الصلاة كيف نتبع الطرق التي رسمها المعلمون ونعرف الدرجات ونميز الفوارق، ونتجنب العثرات ونبلغ بالأفكار والعواطف والمقاصد إلى قياساتها الدقيقة؟

– لا تخافي شيئًا يا نفسي فأنت تعبرين بفضل بساطتك حيث تتوقف نفوس أخرى مرتبكة.

أن ف ي الصلاة عنصرًا مشتركًا بين جميع النفوس، وفي متناول كل الطاقات، ويتفق مع كل الميول. وه ذا العنصر ر ه و جوهر الصلاة انه ليس إلا اتحاد الإرادة بالله. وهذا الاتحاد يتم بالمحبة الذي يسلم الذي الإنس ان بكامله. هكذا تصلين يا نفسي طيلة النهار من غير أن تعلمي ذلك. إذ انك ببذل ذاتك باستمرار وانتباه تصد بحين وكأن ك متأصلة في جو الصلاة والصلاة تمسى تنفسك وحياتك، فهل أنت بحاجة لتتعلمي التنفس والحياة؟

فما ه و إذن سر الصلاة، وما هي طريقتها؟- إن سر الصلاة هو أن تذلي ذاتك لله بمحبة، هو أن تسلمي روحك وجسمك لإرادة الإلهية ولكل أوامرها لك. وطريقة الصلاة هي أن تجددي هذه المحبة باستمرار، وان تجعليها أكثر إخلاصًا وأكثر حرارة وأكثر طواعية وان تدخليها في حياتك وآلامك وأفراحك كلها. فمتى تم لك ذلك تم أول الواجبات وأهمها.

فإذا فهمنا الصلاة على هذا النحو أصبحت بسيطة وعميقة. هي بسيطة كالإله الذي تحبينه، وعميقة الغور كمحيط المحبة اللامتناهي الذي تغوصين فيه، هي واسعة وتفتح لك أفاقًا لا حد لها، لأن الله يسر بأن يبنى على هذا الأساس البسيط.

لقد أنهيت عملك الرئيسي والله يبدأ الآن عمله. أنت تطلبين طريقة، والله سيدلك عليها، فلا يستطيع إنسان أن يعلم النفوس طريقتها في الصلاة لأن كل واحدة تتبع طريقة خاصة بوحي الله وقيادته.

إن المرشدين الروحيين يستطيعون أن يرسموا بعض المعالم، ويقترحوا بعض القواعد، ويرسموا بعض السبل. وهذا لعمري عمل مفيد ولا شك، لكنه يخلو من التدقيق والوضوح فلذلك هو عمل الله. فهو الذي يعلم النفس، في خفايا القلب، والنفس المستسلمة له تسمع صوته.

أه! ما أهم أن يكون المرء طيعًا في يد الله ولن يتقدم إلى الصلاة متفرغًا من كل تعلق بمفاهيم البشر.

المقالة الثانية
إن الله يقود بذاته النفس البسيطة
في مسالك الصلاة

إن النفس التي تمثل أمام الله في الصلاة يجب أن تغور في لجة الاحترام أمام جلاله السامي، ثم ترتمي بين ذراعيه بجسارة بنوية وتفيض له الحب. فجوهر الصلاة العقلية هو المحبة التي تسلم النفس لله ذلك ما يطلبه السيد من كل نفس.

والنفس تحاول أن تثبت محبتها بهدوء وبساطة من غير إجهاد عقلي أو عناء. وبعدها تجعل ذاتها تحت التأثير الإلهي قدر استطاعتها، مصفية إلى الله ومتوقفة بسلام تحت نظره. مكررة حبها أحيانًا بأكثر جلاء أو تمتمة، إن شاءت بشفتيها، أو تصعده من أعماق قلبها، وعند كل غفلة أو تشتت فكر أو تجربة تجدد بذل ذاتها لله بإثبات محبة جديدة. هذا ما يطلبه الله دائمًا من النفس في الصلاة. أما إذا تطلب منها أكثر، كما يحدث غالبًا فهو يقول لها ذلك ويفهمها إياه. إن لديه طرقًا كثيرة لمخاطبتها والتجلي لها، وهذه الطرق كلها فعالة وناجحة. لكنما يجب أن تستجمع النفس لأفكارها وأن تستسلم وتصغي، وأن تكون طيعة.

إن الله قد أعد لكل نفس طريقتها للصلاة، وله وحده أن ينظم سبل الحوار معه. فهو لا يرتبط بطريقة ولا يتقيد بأية قاعدة ثابتة.

انه السيد، يمسك بيده كل النفوس ويحركها ويوجهها ويكيفها كما يشاء فعله عجيب قلما يلحظ أو يدرك، لكنه أبدًا صالح. يسمح أحيانًا بأن يرى فعله هذا، ويساعد هو نفسه على اكتشافه، حتى انه يأمر بوصفه وعرضه على تقدير الجميع واحترمهم وقد ترك بعض القديسين والقديسات وصفًا جميلاً لفعل الله فيهم، لكن هذه الحالات نادرة. فقد قضى تدبير الله أن يرجئ رؤيتنا لعجائبه في النفوس حتى تنتقل إلى ملكوته السماوي، ومن الخطأ أن يريد المرء معرفة أعمال الله وسبر غورها في هذه الحياة. وكل نفس طيعة ترى في ذاتها فعل الله بصورة كافية لاتباعه، وغير كافية لإدراك أسراره..

وقد يدعو الله النفس أحيانًا إلى التأمل فيغمر عقلها بنور حول إحدى الحقائق الكبرى ويدعوها لتزداد فحصًا لها وتكون هذه الحقيقة إحدى أسرار الإيمان. كالقربان المقدس أو الآلام، أو طفولة الإله المتأنس أو أحد الحوادث الفريدة من حياة يسوع، أو تكون إحدى صفات الله الحسنى كصلاحه الفائق، أو قدرته، أو حضوره. في كل مكان، أو كماله السامي الطلق، وقد تكون أحد الأهداف الأخيرة، أو إحدى الحقائق الأبدية، أو شركة القديسين، و إحدى الفضائل كمحبة الله والامتثال لمشيئته الإلهية. فتقف النفس طائعة ناظرة ومفكرة.

وإن شعرت بميل إلى التأمل فهي تكتشف معاني جديدة وأفاقًا أوسع ومصادفات مدهشة وانسجامات عجيبة. وهذه علامة على أن الله يدعوها للمزيد من التوقف والتعمق في التأمل، انه يريد أن يغرس في النفس اعتقادات عميقة واعية يتولى تثبيتها فيما بعد بنور فجائي ورؤية حدسية.

وأحيانًا لا يوحي الله إلى النفس بميل إلى التأمل فتعجز عن تركيز فكرها. والحقائق الأكثر وضوحًا وثبوتًا لا تجد لها في العقل أي صدى. ويولّد التأمل في النفس ضجرًا طاغيًا، فيما يبقى القلب محبًا. إن الله يقود هذه النفس، وهو الذي يوحي إليها بالمشاعر الملتهبة، وعليها أن تطيع وتتبع الجاذب الإلهي.

وأحيانًا لا توحي العواطف للنفس شيئًا ولا يستميلها دفق قلب كله لهب. ويظهر لها التأمل من جهة أخرى تمرينًا مملاً وعقيمًا. فتؤثر بالعكس أن تغوص في العزلة وأن تبقى فيها صامتة بقرب الله. فيجتاحها غالبًا انفعال عميق لكنه هادئ. هي تحس بالغبطة بقرب الله مع كونها تكاد لا تخاطبه فحضرة هذا الكائن اللامحدود تغمرها وتجعلها في حالة هيبة عميقة. بيد أن محبته الفائقة تفعمها بهجة فترتمي في حضن الله كما في لجة لا قرارا لها.

كل هذا يتم ببساطة في أعمق أعماق النفس بحركة تلقائية لا بكلمات صريحة. فتبقى النفس تحت تأثير لقائها بالله ومن نذئذ تصبح أعمالها كأنها معطرة بطيب إلهي فتتمنى لو يدوم هذا الاتحاد العذب الصامت إلى الأبد. لكن لله أفكارًا أخرى، فتعقب فترات اللقاء الإلهي أوقات برودة وجفاء وتظن النفس أن الله يرذلها فتذوب أسى وتئن.

وهكذا يقود الله النفس عبر التقلبات والتطورات حتى القمة حيث تنفتح أمامها من جديد آفاق أخرى تغريها على أن تحث الخطى.

ولكن ماذا ينفع وصف كل هذا يا يسوع؟ فكل نفس طيعة هي عالم من المعجزات، وكل واحدة تتبع طريقًا لها لا يعرفه أحد سواك وأنت ترسمه وحدك. وأنا لا أريد إلا أن كون طيعًا أصغى باحترام إلى صوتك،

العـ ذب، أجـ رى وراءك، فيكون سبيلي أن احبك في كل شيء وعلى الدوام، وأن استسلم لهديك وأن أسألك بلا انقطاع مزيدًا من الحب.

يـ ا مـ ريم العـ روس المقدسة، الحمامة السرية، علميني أن أقدم لسيدي والهي سجودًا مقرونًا بالمحبة الفائقة.

المقالة الثالثة

ممارسة بذل لذلت في التمارين الروحية

إن النفوس التقية لا تكتفي بالصلاة، فلديها مجموعة تمارين روحية لتنمية النشاط وتغذية التفاني، وهذه تؤلـ ف طعام النفس الروحي. وأهمها القداس الإلهي والمناولة والمطالعة الروحية وزيارة بيوت الله وصلاة اسم يسـ وع والاعتـ راف. ولا يسوغ الإقلال من أهمية هذه التمارين وغيرها. ولا الغلو في مدى طاقتها. فالله يقود النفوس ويكملها بحسب مشيئته، ويستعمل لذلك طرقًا متنوعة لا عد لها، تحل التمارين التقوية بينها، عادة، محلاً مرموقًا ولكنه مع ذلك يهمل هذه التمارين أحيانًا ويستغنى عنها.

وواجـ ب النفس هو أن تتبين ما هي هذه المشيئة الإلهية بالنسبة إليها وأن تتبعها بأمانة حالمًا تعرفها. فإن كانت تعيش في دير، فيما بين غزارة الوسائل الخارجية المقدسة توجب عليها أن تعني في استعمالها. وأن كانت تعيش في العالم وفي زحمة المشاغل، أو كانت تعيل أسرة وتهتم بتحصيل خبزها اليومي، فهي لا تستطيع أن تتقـ يد بتلك التمارين مثل تلك الدقة أو النسبة كما أنها غير ملزمة بذلك. فالله الغني بالرحمة والرافة يعطيها بطرق أخرى النعم المنوطة بالتمارين الروحية.

من تراه يصدق أن النفوس التي تنعم بفيض من الوسائل الروحية، قد تجد في هذه الغزارة عينها عقبة تحول دون بلوغها الكمال؟ ومع ذلك فهذا يحدث في الواقع.

مسكينة الطبيعة البشرية! إن تركت لحكمهما الذاتي اصطدمت بكل حجارة الطريق. فمتى تراها تدرك أن السير في طريق الكمال سيرًا فعالاً لا يكون بقوة الإنسان وحده، بل بسيره مستندًا إلى ذراع الله.

هـ ناك نفـ وس تـ ريد أن تصـ ل إلى الهدف بسرعة، فهذا ولا شك شوق نبيل. ولهذه الغاية تكثر من الـ تمارين الروحية والمطالعات والصلوات والأحاديث التقوية. لكن كل شيء لا يسير بحسب مشتهاها. فقراءة الكـ تب الروحية تثقل ذهنها بدلاً من أن تنير. والأحاديث الروحية تترك في قرارة النفس حزنًا غامضًا وفراغًا ألـ يمًا. والصلوات الكثيرة تورث: الضجر والنفور، فأين هو الخلل، لقد كان، وا أسفاه للإرادة الخاصة نصيبها في هذا الاندفاع! وكانت هذه النفوس تروم أن تستبق الله كالولد الذي يترك يد أمه ويسير وحده في الطريق، فلا عجب إذا وقع أصابته الجراح.

ليس من تمرين روحي يفيد النفس إن كان خارجًا عن ترتيب الله. فاهتمام النفس الدائم يجب أن يكون بأن تسلم ذاتها كاملة لله، ثم بأن تتخذ الوسائل التي يعطيها الله واحدة فواحدة، بالشكل الذي يحدده وفي الظروف التي يحيطها بها، وفي الوقت الذي يعينه لها. أما محاولة التمسك بها عندما نفقدها بأمر الله، والرغبة في إطالة

زمـ نها والإكثار منها والتشدد في تتميمها خلافاً لإرادة الله، فهذا مما يعاكس الترتيب الإلهي المعد لكل نفس منذ الأزل.

فـ يجب إذن أن تمـ ارس النفس تمارينها الروحية بقلب متفرغ جدًا، وأن تقصى عنها كل تسرع وكل تعطش غير معتدل، كما تبعد كل جبن وكسل وملل.

يعتقد يوحنا الصليبي أن كثيرًا من النفوس التقية تغذيها نقيصة سماها "الشراهة الروحية"، فمن يستطيع تخطئة مشورة هنا القديس والمعلم الخبير في إرشاد النفوس؟ إن الإفراط وعدم الاعتدال يذيب الصحة الجسدية لأنـ ه نقص في التسلط على الذات وضعف في الإرادة التي لا تعرف أن تردع شهوات الحواس الجامحة، وهذه النقيصـ ة نفسـ ها، علـ ى الصعيد الروحي، تدمر صحة النفس. إنها جوع وعطش مفرطان، ودليل ضعف في التسلط على الذات وتعلق زائد بآرائنا الشخصية.

إن الـ نفس التـ ي ابتليت بهذه النقيصة تظهر بوضوح أنها لم تتفهم بعد تعليم بذل الذات المعزي، أنها تريد ولا شك أن تستسلم لله ولعنايته. ولكن على طريقتها هي وفي الزمن الذي تحدده هي، ومع التحفظات التي تضـ عها هي، وكأنها تريد أن ترشد الله إلى الوسائل الواجب اتخاذها وتهيئ له ما من شأنه أن يعجل في عملية تقديسها.

مسـ كينة هـ ذه النفس! أنها تتحمل مشاق لا جدوى فيها، وأسوأ من هذا فهي بتسرعها غير المعتدل، تعرقل عمل الله.

المقالة الرابعة
إن النفس المستسلمة لا تهتم في تمارينها إلا لترتيب الله

تعلمي يا نفسي أن تتمي تمارينك الروحية بكل هدوء وسلام لا تحذفي شيئًا مما يفرضه عليك الواجب ولا مما يطلبه الله منك، ولكن لا تثقلي عاتقك بممارسات مفرطة.

أنت ابنة الله وهو يفهم جيدًا لغة القلب. فقولي له ورددي أنك له إلى الأبد فذلك ما يبتغيه منك. ثم أدى تماريـ نك بالدقـ ة والكمـ ال اللذين تتمين بهما كل أعمالك. وبعد هذا كوني في سلام فالله يتولى أمر كمالك يوم تضحين بكل شيء لإرضائه.

لا تقومـ ي بقراءات روحية إلا بحسب أمر الله وفي الزمن الذي يحدده. فإن هذه القراءات خارجًا عن مشيئة الله لا تولد إلا الاضطراب في النفس وتضعها في الظلمة بدل أن تنيرها، وتلبكها بدل أن تساعدها وتقلقها بدل أن تطمئنها.

أنـ ه لمـ ن الضروري ألا تكون للمرء أية إرادة خاصة وأية مبادرة غير التي تدفعنا لنكون حقًا لله بلا تزعـ زع فـ ي جميع الحوادث في النجاح والإخفاق، في الهناء والشقاء في الظلام والنور، في غزارة الوسائل الروحية كما في شحها.

فالنفس التي صارت إلى مثل هذه البساطة ليست بعد قابلة للإغواء والضلال لأنها تتمسك فقط بمشيئة الله. هي دومًا في رحة دومًا غنية لا تتشكي من أي حرمان روحي لأنها لا تعرفه أبدًا. أنها تعيش في فيض خيرات إلهها الذي يملؤها بمقدار استيعابها في كل لحظة من لحظات النهار. وكالإناء الذي ملأه. المحيط لم يعد لها ما تشتهيه بعد.

أيها الملء ما أقل معرفتنا بك وتقديرنا لك! إن النفوس تهلك من كثرة رغائبها المعاكسة لترتيب الله، وتذيب ذاتها في جهود باطلة وشكاوى مرة.

فبعضها يطلب بإصرار مزيدًا من المناولات والاماتات. والصلوات. وبعضها يتوق بقلق إلى العزلة والخلوة والصمت وغيرها يشكو من أعباء المشاغل وقلة الوقت والحاجة إلى مرشدين روحيين. وكلها تقريبًا رغائب تعرضها أو حسرات وهموم تبديها.

أما أنا يا يسوع، فأريد أن اسر بك وحدك وبمشيئتك الإلهية. إنني لا أرغب في شيء ولا ارفض شيئًا ولا اطلب إلا ما علمتني أن أطلبه وابتغيه: "ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض". هذه هي حدود رغباتي لأنني أعرف أن الخير الوحيد المشتهي على هذه الأرض وفي الأبدية هو أن نكون لك.

أجل، إنني أتوق ولا شك أن أتناول جسدك، وأن أقتنيك في قلبي، وأن استسلم لمحبتك لي وإنعامك على، لكنني لا أتوق إلى هذا إلا إذا كانت فيه مسرتك. وإن كان على أن أعيش في القفر كالنساك من غير أن اسعد بتناولك كل يوم، فقد أموت من التحول والشوق، لكن لن تفلت أية شكوى من شفتي يا يسوع، ولن يتحسر قلبي على شيء لأنني اعرف انك أنت ارتضيت لي ذلك.

وأذا أتوق أيضًا بلا شك يا يسوع، إلى العزلة والخلوة فهي تجتذبني وأشعر بك فيها أقرب إلى وأكثر حبًا وألفة، وتغمرني فيها عظمتك بنصيب أوفر حتى يجيش قلبي تهليلاً ولكن إن أردت أن تبقيني في ضجيج الأعمال ترهقني المشاغل والارتباكات والمكاره المختلفة، فأنا أرتضيها طائعًا يا إلهي لأنا "يدك هي التي تمسكني فيها".

سأكون سعيدًا ولا شك عندما تضع عنايتك في طريقي نفسًا تحبك أنت وحدك وتقودني نحوك وتعلمني حبك وتصلح نقائصي فأشكر لك أيها السيد هذه النعمة لأنني اعرف انه ليس أثمن من مرشد خبير وأب محب. ولكن إن أبعده عني واجب، أو فرقتني عنه مقتضيات مجدك فلن أتشكى لأنني أعرف يا رب انك أنت وحدك تكفيني وانك تقيم عند الحاجة من الحجارة رجالاً قادرين على مساعدتي وتعليمي محبتك.

يا يسوع إنني أتعلق بك وحدك بمحبة حارة واستسلام سخي.

المقالة الخامسة

النفس المستسلمة لله في علاقاتها مع العالم

على النفس التي بذلت ذاتها لله أن تعيش في هذا العالم على طريقة البشر. فالله لم يعطها طبيعة ملائكية لا يشغلها سوى التفكير فيه ومحبته، بل هي تعيش ضمن عائلة و جماعة رهبانية أو مجتمع، وهنا

الكثير من علاقات الصداقة والمنفعة واللياقة والقرابة تربطها وتشغلها. هذا هو النظام الذي وضعه الله ولا سبيل إلى مقاومته. فالنفس لا تستطيع أن تتخلص من عبء هذه العلاقات إلا إذا توارت في مغارة منعزلة لا يصحبها في عيشتها الجديدة إلا وحوش القفر.

ومن هذه العلاقات ما هو مستحب وشريف يكون للنفس بمثابة لهو برئ وتسلية مفيدة ولازمة. ومنها ما هو ودي حميم كالبلسم للقلب الجريح والحافز للعزيمة الواهنة والمعزي للنفس الكسيرة، ومنها ما هو غير ذي بال لأن الدافع إليه هو اللياقات والمصالح: وهي علاقات لا تدوم طويلاً لأنها غير ثابتة كالسبب الذي أوجدها. ومنها ما يجبر المرء عليه وتمليه الحاجة أو الخضوع أو الخوف وتفرضه الطبيعة أو المركز أو الأعمال أو البيئة.

إن كثرة هذه العلاقات وتنوعها يؤلفان بالنسبة للنفس المتغافلة عقبة كبرى لبلوغ القداسة.

فهي تمكن تلك العلاقات من أن تحيط بها كالشباك فتفقد فيها حريتها وانعتاق قلبها واستقرارها، أي لما أساس كل حياة كاملة.

فتارة ترضيها هذه العلاقات وتفتنها وتتركها غافلة على حافة الهاوية، وطورًا تشغلها وتزعجها وتقلقها وتسلبها وقتها وراحتها وأحيانًا أخرى تعاكسها وتحزنها. وتثير فيها الحسد والبغض وتبعد أفكارها عن إله السلام.

فكيف تستطيع أن تتبع يسوع في صحراء قلبها وتجلس هادئة عند قدمي معلمها وهي متعبة مأسورة تتجاذبها الأهواء؟

فعليه إذن أن نرتب علاقاتنا بحكمة مع الآخرين. إن النفس التي استسلمت بسخاء ليسوع لا تحب العالم ولا تخشى اقتاداته أو تأبه لسخريته، كما أنها تعلو برفقة جناح على تعيير العالم لها أو عدم رضاه. وهكذا، إذ تتيقن أنها تعمل مشيئة الله، لا تألو جهدًا في السيطرة على عواطفها والاحتفاظ بهدوء فكرها واتزان تصرفاتها.

إن النفس الروحانية حقًا لا تكون أبدًا أسيرة أي مخلوق مهما كانت صلتنا به مستحبة ومغرية ونقية. أنها لا تسلم ذاته بكاملها إلا ليسوع. فهي مسكن الله، خدر يسوع. وهكذا فإن القلب الذي هو لله بكامله يملؤه الله على الدوام. يملؤه يسوع ويفيض منه. ومن ثم ينسكب هذا الفيض على الخلائق المحيطة به.

ومحبة مثل هذه النفس البسيطة للخلائق لا تعادلها محبة، أن في نقائها أو في ثباتها. فهي خالصة من كل أنانية لأنها من فيض حبها ليسوع. هله المحبة غير معرضة للتغيرات ولا تخضع للأهواء وتقلبات المزاج. أنها لا تتأثر بمزايا الناس وجمالهم واستحقاقهم وصلاحهم فإن أساسها في الله وحده. إنها تستغرب الخيانة والعقوق وقلة الأمانة لكنها لا تقنط لأنها من الله تنبع وتتدفق.

إن النفس الروحانية لا تسعى لاكتساب تقدير أي خليقة، إذ هي تعرف جيدًا أن لا حق لها في ذلك فيسوع وحده هو سيد النفوس وملكها لأوحد الذي يحق له كل حب ومجد.

ومن جهة أخرى لا تجهل هذه النفس أن كل مجد بشري زائل وقريب العطب والخذلان. فقد برهنت لها الخبرة إن ما من خليقة تستطيع أن ترضى القلب طويلاً أو ترى ظمأه إلى المحبة، فالإنسان يشعر بأنه مخلوق لغير المحدود.

المقالة السادسة

النفس المبذولة لله تتمتع بحرية مقدسة

هكذا تعيش النفس طليقة حرة في خضم عالم من العلاقات المختلفة. فهي تسيطر عليها وتقودها وتحدد ذ وعها وت رتب أوقاتها وشكلها. هي تحس بأنها فوق الأمور المحيطة بها والتي تحاول أن تطغي عليها. فبذل ذاتها المتواصل ليسوع يقف حاجزًا منيعًا أمام هذه المحاولة.

ويظ ن العالم أحيانًا انه قد اجتاز هذا الحاجز. ولكن بينما هو يتصور أنه قد امتلك النفس وجرها إلى ت ياره. إذا بيسـ وع يدع وها إلي داخلها. إلي هذا الجزء الصميم الذي لا يستطيع العالم ولوجه، فيفصلها عن اضطراب الخارج ويعيدها إلى هدوئها المعتاد. لا شيء يمكن أن يسئ إلى هذه النفس. فكما أنه ليس باستطاعة أي حب أو عطف بشرى أن يستعبدها كذلك لا يقدر أي عنف أن يخيفها ولا أية مصلحة أن تقيدها.

م ا أروع رؤية نفس كهذه تعيش هادئة وسط عالم مضطرب معذب! أنها كسنديانة جبارة وسط حرج تك اد الـ ريح لا تحرك قمتها الجبارة، بل تبقى ثابتة هادئة بينما ينحني كل شيء حولها ويقلع ويكسر. وعندما تحمل زوبعة الأشغال العالمية النفوس الصغيرة في التشتت الاضطراب تصمد النفس الروحانية غير متزعزعة وتظل جبهتها مرتفعة بفخر إلى السماء وقلبها متأصل في يسوع.

آه! م ا أعظم سر الاحتفاظ بضبط الذات وامتلاك القلب والسيطرة على العلاقات بدل أن يدعها المرء تطغ ي عل يه وتقوده! ما من أحد يستطيع التوصل إلى هذه السيطرة على الذات إلا الذي تخلى عن كل منفعة شخصية زمنية وعن كل تقدير بشرى وكل اهتمام بالمستقبل.

علمن ي ه ذا السر الإلهي يا يسوع! اربطني بك بقوة حتى لا تستطيع أية خليقة أن تفصلني عنك. أنا أشـ عر بأنني ضعيف كل الضعف. كل شيء يؤثر فيّ: نظرة من صديق، كلمة مؤلمة، ابتسامة. كل شيء يثير شـ جوني ويعكر صفوي. إن المصائب تهدني والهموم توهنني والألم يثير أعصابي والمناقضة تغيظني. بادرة وديـ ة تأسـ رني وحـ رمانها يشقيني. كلمة طيبة تنهضني والمديح يستهويني والاستحسان ينشطني. وهكذا فأنا خاضع لانفعالاتي.

يا يسوعي، اجعل في ملكك المطلق السامي. واطرد من قلبي أولئك الغرباء والباعة، والصيارفة الذين يحولون مقدسك إلى سوق عامة. اعد إلى حرية أبناء الله التي جئت بها إلى الأرض. اجعلني غير خاضع لأحد في هذا العالم إلا لك ولكنيستك المقسمة ولا يكن للحياء البشرى أي سلطان على.

هب لي ألا أبالي بأمور الدنيا ولا أتأثر بالاستحسان أو النقد وألا يلهيني عنك تعدد واجباتي وعلاقاتي.

المقالة السابعة

بذل الذات في غمرة الأشغال

لا تمضى كل النفوس حياتها في دير محاط بسور، يحميها من تأثير العالم سياج النذور الرهبانية، بل

يعـ يش أكثـ رها فـ ي العالم فيما بين تيارات الأعمال، منهمكًا في نضال لا يتوقف لتحصيل خبزه اليومي. إن الشـ واغل الخارجية تسترعى انتباهها كله. وهذه الشواغل التي تفرضها الطاعة أو ترسمها الحاجة أو يختارها الـ ذوق الشخصـ ي لا تلبث أن تتكاثر وتتنوع حتى تفوق طاقة النفس. فتقاوم هذه بلا جدوى تلك العراقيل، ولا تتوصـ ل إلـ ى التوفيق بين الحياة الروحية وهذا النشاط الخارجي المضطرب. فالأعمال بدلاً عن أن تدع روح الصـ ـلاة تتغلغل فيها تخنق بالحرى هذه الروح أو ترهقها، ولا تلبث النفس أن تكل وتتعب وتعلن أنها لم تخلق لحياة الصلاة.

إلـ ى جانـ ب الانهمـ ـاك وحمـ ى العمـ ل تأتي المعاكسات والمصاعب الملازمة للحياة التي اخترناها وللوظائـ ف التي أسندت إلينا، وهكذا تستنفد الاهتمامات الخارجية نشاط النفس وتجفف القلب وتنفره نهائيًا من الحياة الداخلية.

يـ ـا يسوع! إن هذا الخطر، بصورة خاصة يخيفني، فأنا أرى كثيرين يصطدمون بهذه العقبة فيسقطون أو يغـ رقون بطريقة يرثى لها. فهل تراك دعوتنا إلى الصحراء وكثرت لنا فيها المعجزات لتتركنا نموت فيها، وهـ ل يمكن أن تتسبب الأعمال التي نقوم بها لإرضائك في هلاكنا؟ أيها الرب يسوع، لا تسمح بذلك بل علمنا كيف نعبر هذا البحر الأحمر الذي تهدد أمواجه بأن تغرقنا.

مـ اذا تخافـ ين أيـ تها النفوس المخلصة؟ اسمعي صوت المعلم فالخطر كبير ولا شك ولكن لا للقلوب الطيعة.

إن الأعمال ليست هدفًا بل وسيلة أعطيت للنفس لتبرهن لله عن محبتها. فيجب إذن أن نمارسها، ولكن باعتدال. فإذا خيرنا في أعمالنا، لا نأخذن إلا التي لا تلهينا، أو قلما تلهينا عن الله. يجب إذن استعمال بصيرتنا.

لكنـ نا نجـ د بين الأتقياء من لهم الحرية التامة في تنظيم وظائفهم وتحديد شواغلهم، ومن ذلك تتقاذفهم أمـ واج أعمـ الهم المتزايدة دومًا فمن ترى يلزمهم بكل هذا؟ – ما من أحد. فيا للمتهورين المساكين! إن الهاوية ليست بعيدة عنهم، وهي تنتظرهم لتبتلعهم.

مـ ن تـ راه. يجهـ ل أمثال تلك السقطات الجديرة بالرثاء بل أمثال ذلك النوع من الجحود المتأتي عن الإفراط في العمل؟ وعند هذا تختصر في بادئ الأمر الصلاة والتأمل وتمارين الحياة الروحية ومن ثم تلغى.

بيد أن الإنسان العاقل يتذكر دومًا أن هناك شيئًا واحدًا ضروري، هو بذل الذات لله.

إن ملأنـ ـا العالم بسطوع معارفنا وأدهشنا الحكماء بعمق مباحثنا وإن أثرنا إعجاب الشعوب وتقديرهم بخدماتنا الجليلة. مدفوعين إلى كل هذا بعوامل بشرية. لا تؤدى لله مجدًا بقدر ما تؤدى بمحبة بسيطة.

إن زهونا لعلى ضلال: فوجودنا على هذه الأرض ليس ضروريًا، والله قادر لن يسوس الكون بدوننا. وستتابع الكواكب بعد موتنا سيرها في رحاب الفضاء. وتواصل الممالك تتبع مصيرها على هذه الأرض، فماذا نستطيع أن نغير في ذلك من تلقاء ذاتنا؟ إن مكانتنا ضئيلة على هذه لأرض وتأثيرنا محدود جدًا، ما لم نكن لله جسـ دًا وروحـ ـا، ما لم نكن بين يديه أدوات لا حد لطواعيتها، ما لم نتخل عن أرادتنا الخاصة، ما لم نعمل إلا بوحي العناية الإلهية التي ترتضى أن تستخدمنا لبلوغ مقاصدها.

حينئذ يكون عملنا هادئًا لأنه يكون معتدلاً، ومستمرًا لأنه حلو، وخصيبًا لأنه إلهي.

لكن النفس قلما يمكنها اختيار أعمالها، فغالبًا ما تفرضها عليها الطاعة، كثيرة صعبة. والله يسمح بأن تفوق هذه الأعمال مقدرتها، وألا تستطيع، رغم رغبتها المخلصة، أن تتممها كلها في الأوان المناسب. ومع ذلك فالطاعة هي التي تريدها. فما أكثر النفوس المسكينة التي وجدت ذاتها مرتبكة أمام هذه المعضلة.

اجل! إن أعمالك تفرضها عليك الطاعة، والله يريد أن تنكبي بعناية على تتميمها. هو يريد ألا تضيعي لحظة في شواغل لم يأمر بها. فمتى فعلت هذا قمت بواجبك.

فأعملي إذن وتصرفي كأنه ليس لك عمل أخر لهذا النهار. أعملي بنشاط بلا كسل ولا إبطاء، ولكن لا تقلقي ذاتك بالرغبة في إنهائه. وعندما تنهين أول عمل ارفعي عينيك برهة نحو المعلم الإلهي ثم ابدئي عملاً آخ ر. فالله يريد أن تبقى مشغولة ولا يريد أن تتممي ما يتجاوز الحد. فإن كان ثمة أشغال لا تستطيعين إتمامها م ع م ا تبذلين من عناية هادئة وانكباب رصين فاطمئني لأنك قد أتممت مشيئة الله إذ بذلت يومئذ كل ما في طاقتك، ويسوع راض عنك.

لكن ى اع رف أن البشر قد لا يحكمون على هذا النحو، وأن بعض الرؤساء القليلي الحكمة يطلبون أح ياناً أكثر مما يطلب الله ويظهرون استياءهم. وهذا أصعب موقف تستطيع أن توجد فيه نفس ورعة تريد أن ترضى الذين أقيموا رؤساء عليها، وأن لا تلحق ضررًا بحياتها الروحية.

فعلى الـ نفس أن تـ بذل كل ما في طاقتها من غير قلق أو اهتمام وإن كان عليها أن تتحمل لومًا أو تخضـ ع لتقـ ريع بسبب عمل لم يكن عدم انتهائه ناتجًا عن تقصير منها، فهي تتقبل هذا الصليب الصغير كدليل محبـ بة خاصة من يسوع لها. فإن السلام الداخلي والتسلط على الذات يساويان التضحية بتقدير البشر ومودتهم. وهكذا تستفيد النفس من ناحيتين إذ تحتفظ بسلامها الداخلي في غمرة الأشغال كما تحتفظ به إبان المهانة فتجدد في كلا الحالين بذل قلبها لله.

ومـ ن الـ نفوس مـ ن يمكنه اختيار مشاغله، ومنها من يعيش تحت الطاعة، ومنها من تحدد أعمالهم ظـ روف معيشـ تهم أو حالتهم الاجتماعية. إن السعي وراء المعيشة اليومية والاهتمام بالعيال والقضايا المهمة والشـ واغل المتنوعة تستغرق أوقات أكثر أهل العالم وانتباههم. ومع ذلك تستطيع النفس الصالحة أن تنجو هنا أيضًا، من الخطر الذي يهدد حياتها الروحية.

علـ يها أن تذكر أقوال يسوع: "لِمَ تهتمون للغد، ولم تتساءلون بقلق: ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلـ بس؟ فهذا كله تطلبه الأمم، أما أنتم فأبوكم السماوي عالم بما تحتاجون إليه. فلا تهتموا أبدًا. بل انظروا إلى طـ يور السماء أنها لا تزرع ولا تحصد، وأبوكم السماوي يقوتها. اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره. وهذه كلها تزاد لكم"[23]. تلك هي حكمة الإنجيل، هذا هو صوت يسوع العذب يطمئن النفس المستسلمة له.

فـ لا تتسـ رعي أبدًا يا نفسي ولا تدعي الأعمال تشغلك مهما ظهرت لك ملحة هامة. اجتهدي في أن تكونـ ي معتدلة في تصرفاتك كلها. ولتكن حركاتك وطريقتك في الكلام دليلاً على نفس تمتلك ذاتها، فمظهرك الخارجي يؤثر في داخلك فتصبحي دومًا هادئة وسيدة ذاتك.

[23] مت 6:25–34.

ولـ و أعطى لك أن تسوسي مملكة فهذا الاهتمام ليس من شأنه أن يجعلك تفقدين راحة قلبك لأن نفسك أثمـ ن مـ ن ممالـ ك الأرض كلهـ ا فأقيمي يسوع عليك سيدًا ودعي لـ ـه الاهتمام بمصالحك كلها ثم أحبيه قدر استطاعتك. فلن يقال إن العروس شكت الجوع والعطش في قصر الملك عريسها.

الفصل الثالث

ممارسة بذل الذات إبان المحن

المقالة الأولى

بذل الذات والتجربة الداخلية

إن يسـ وع بستاني خبير، يسهر على الأشجار المثمرة التي غرسها أبوه ويشذبها كما يناسب. والنفس تعرف أنها موضوع اهتمامه الإلهي فتكتفي بأن تنمو فتكسوها الأوراق والأزهار والأثمار. إنها لا تتساهل متى يشـ ذبها المعلـ م وينزع عنها الأغصان الميتة، بل تنتظر بصبر، لعلمها أن يسوع يسهر عليها وأنه يرسل إليها صـ ليبها العزيـ ز فـ ي الوقت المناسب. إنها لا تحدد شيئًا ولا تعين نوع العذاب الذي يرسله الرب إليها، فهذه جسارة وفضول، فهي تترك له ذلك لأن كل ما يفعله حسن.

إن الصـ ليبان التـ ي يرسـ لها يسوع إلى النفوس ليقودها في طريق الكمال عديدة ومتنوعة. والنفس لا تعرف أيها قد خصص لها، فتتقبلها كلها سلفًا لذلك عندما يتراءى لها يسوع حاملاً الصليب تسرع إلى مساعدتك في حمله.

كيف نصف بالتفصيل المحن التي ينعم بها يسوع على النفوس؟

فهـ ي لا متناهيه في تنوعها ومطابقة لحاجات كل نفس ومنتقاة بحسب سمة الجمال الخاص التي يجب أن تزينها.

إن يسـ وع يسـ ر خاصة بتنويع التجربة الداخلية. فهنا في داخل النفس لا يلاحظ عمله ولا يراقب ولا يعـ اكس إلا قليلاً، هنا يستطيع أن يبتر ما هو زائد في صميم القلب وينزع منه كل جذر غير نقي ويخرج منه كل عصارة غريبة.

وكثيـ رًا مـ ا يستخدم يسوع قلق الضمير والشكوك في خلوص النية وفي قيمة الأعمال الحسنة. فتتألم النفس ألمًا لا حد له مؤكدة لله محبتها وأمانتها على الدوام.

وتـ بلغ المحـ نة أقصى درجة من الخدمة عندما تقتنع النفس بأنها عدوة الله، بأنها قد خانته وهجرته، وتحسب أن الله يتركها بدوره وأنه يحول عنها وجهه ويسلمها إلى أعدائها وان غضبه يلاحقها.

ولكـ ن مـ ا الفائـ دة من الوصف "فإن الله قد اختص هذا الأمر بذاته انه يريد أن يكون حرًا وان يعمل وحده في داخل النفس. ولا يتمكن أحد من تفسير ما يحوطه الله بالأسرار، ولا من إدخال التعزية إلى حيث يريد الله أن يبعدها.

أمـ ا واجـ ب النفس المستسلمة لله فهو أن تجدد بذل ذاتها في هذه الأوقات العصيبة. والله يترك للنفس تلك القدرة السامية على أن تستلم له بفعل أرادتها. وهو يحرمها ولا شك عزاء فعلها ويخبئ عنها صلاحه لكنه يساعد دائمًا على تتميمه لأن في ذلك جوهر الحياة الروحية.

ومتى قامت النفس بهذا الفعل، لا يتبق عليها سوى أن تتألم وتنتظر وتصبر. إن كمالها كله قد تحقق في البرهة الحاضرة، والله يعمل فيها وينقيها ويرميها في البوتقة مستعملا على التوالي، الحديد والنار. ويتطاير الشرر ولا شك تحت ضربات مطرقته الإلهية المتتابعة لكن الحديد يبدأ في اتخاذ شكل ما. ولا يلزم إلا قليل من الصبر حتى يتم الله تحفة جديدة. حينئذ تتوقف المحنة فجأة لأن الله، بعد أن يبرد غليل النفس وينعشها يعيد إليها قواها ويمزق الغشاء الذي كان يحجب بصرها.

إذ كيف تصلب يا يسوع بطريقة عجيبة. فلم لا أفهم أنه ينبغي لي أن أتركك تتمم في عملك في هذه الأوقات الأليمة، من غيار تشك ولا تذمر، وأن أجيب عند كل شدة جديدة وكل محنة اشد إيلامًا، بفعل خضوع أكثر حيًا؟

المقالة الثانية

يجب أن تعالى النفس النقية على المحنة عينها

إن المحبة الداخلية مفيدة، ويسوع يشرك فيها كثيرًا من النفوس. لكنه لا ينعم بها عليها كلها، ولا لزوم أن يحصل ذلك. فليس من شيء لا يمكن الاستغناء عنه، حتى المحنة الداخلية ذاتها، وهناك نفوس تقلق لعدم وجود أسباب تقلقها وتضطرب من الهدوء الدائم الذي يسود فيها وتتألم من الفرح غير المنقطع الذي يغمر قلبها. أنها تكاد تشكو الله بأنه لا يحبها ولا يريد أن يرسل لها صليبه الحبيب.

أما القلب البسيط فلا تراوده مثل هذه المخاوف. وهو يحب الصليب ومتى ظهر له يتقبله كأخ عزيز ويضمه إلى صدره كباقة زهو بعث بها يسوع، لكنه يعرف أن يرتفع فوق الألم نفسه. فالآم ليس هدفًا وإنما هو مجرد وسيلة محبوبة ولا ريب، والنفس لا تتعلق به أكثر من تعلقها بتسليات هذا العالم وأفراحه، فدورها هي، أن تبقى حرة وتنطلق وتطير في أجواء المحبة. وهي لا تحتاج من اجل هذا إلا إلى أجنحة يعطيها إياها يسوع.

قلبًا نقيًا أخلق فيّ، أيها المعلم الإلهي! فالقلب النقي لا يعرف قيودًا ولا يصادف عقبات البتة في ارتفاعه نحو الله. لأنه ليس أسيرًا لأية خليقة ولا هو تحت رحمة أي حادث، لا يقيده أي شوق ولا يأسره سوى الذ زوع إلى أن يكون ليسوع. لقد حطم أخر رباط ما برح يقيد بعض النفوس ألا وهو التعلق بطرق الكمال، ومنها الألم.

ومن الآن فصاعدًا لم يعد أي شيء يهم النفس ما دامت تحب يسوع، كل شيء يحسن في عينيهما ما دامت تستسلم له أنها لا تطلب العذاب إلا إذا أوحى إليها معلمها بذلك فهي تعلم جيدًا أن يسوع يحبها كثيرًا، لذا لن يستثنيها من العذاب إن كان ذلك ضروريًا لها. وهي تبتهل إليه فقط أن يعطيهما القوة لتتحمله وتشكر له عطيته.

دورها هي، أن تقنع بما تقدمه لها اللحظة الحاضرة من هين وصعب، من حلو ومر. وتظهر حياتها تافهة لها وللآخرين أيضًا. لكن هذه الحياة هي في الواقع أسمى ما يمكن على هذه لأرض. وكثيرًا ما يجنبها يسوع الألم، فقد جعل الصليب لتحطيم القيود وتنقية القلب. وأما هي فما من قيود توثقها، وقلبها بسيط ومستقيم

لا تجد فيه نار الألم ما تلتهمه، بل هو يتحول إلى جمرة من الحب الإلهي هادئة لذيذة. وتلج هذه الشعلة اللطيفة إلى صميم النفس وتنقيها يومًا بعد يوم من النقائص والهفوات الملازمة للطبيعة البشرية، وتذيبها على مهل كمحرقة زكيه الرائحة.

المقالة الثالثة
يجب علي النفس المستلمة لله
أن تتوقع الاضطهاد

"إن جميع الذين يريدون أن يحيوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون"[24]. ذلك ما يقوله القديس بولس بوحي الروح القدس. إن النفس الصالحة بالطبع تتصور في بادئ الأمر أن كل ما في الحياة يبتسم لها، فتستسلم لها بنية سليمة لما يعجبهًا ويستهويها وتحسب أن الناس أجمعين مستقيمون وبسطاء مثلها. لكن هذا الوهم لا يدوم وا أسفاه إلا قليلاً إذ لا تلبث أن تتبين أن المحبة التي تعامل بها والمردة التي تظهر لها ليست صافية، بل غالبًا ما تكون إلا طلاء ومظهرًا بل ستارًا تتخفى وراءه أنانية بشعة.

وكلما عاشرت الناس اكتشفت في معظمهم برودة قلب وضيق مشاعر وصغر نفس. وهي تلاحظ هذه النقائص حتى في أولئك الذين يظهرون لها أتقياء ومثقفين، كما أنها بعد طول الاختبارات الشخصية، لا تلبث أن تلاحظ هذه الأمور في ذاتها.

إنهما ليست في ذلك على ضلال لأن كل إنسان بطبيعته محدود من كل النواحي: محدود في ذكائه وفطنته، محدود في تفكير. وأحكامه.

إن القلب البشري مفعم بالأنانية، والفكر كذلك طافح بالطموح. وا أسفاه إن صغر النفس وضيق النظر والتصلب في الرأي يشوه أفضل النفوس. ولا ريب أننا لا نكون في غالب الأحيان مسؤولين عن هذه العيوب، ولكنها في الواقع حقيقية وكثيرًا ما توجد الصعوبات في توطيد علاقات متواصلة بين الناس، حتى الروحيين منهم.

ونحن نعرف أن النيات حسنة لدى الطرفين لكن أوجه النظر والأمزجة تختلف، الإرادة جيدة عند هؤلاء وأولئك ولكن تقدير الأمور يتنوع وكثيرًا ما يتناقض.

ولو أن الصعوبة تنحصر في هذا التصادم البسيط أو في اختلاف المزاج وتباين الرأي لكانت محتملة إذ لا يلزم للتغلب عليها إلا فضيلة عادية. لكن هذا التباين الخفي في العواطف والأحكام ينفجر في تنافر سافر وذم صريح، وفي مقاومة أو اضطهاد مكشوف فترى النفس الحسنة النية أنها أصبحت مشتبهًا بها ومعارضة ومقاومة في احسن مشاريعها وكذلك النفس البسيطة التي تعتقد أنها تتجه رأسًا نحو الله بارتفاع القلب ترى ذاتها موضوع شبهة ومراقبة وانتقاد: إذ لا يحتمل الناس أن تغايرهم في السلوك وتبتعد عن مجتمعهم، فارضة على ذاتها ساعات خلوة وصلاة وممتنعة عن تسليات وعلاقات تحسب ضرورية.

---

[24] 2 تيمو 12:4.

والنفس التي تحركها غيرة شديدة تلقى المقاومة في مقاصدها فيهملها أفضل أصدقائها وينتقدها أجدر القضاء ويخونها أصفي أصفيائها: لأنهم يجدون تلك الغيرة عديمة التنظيم، وذلك النشاط مفرطًا، وهذا الاجتهاد والاه تمام جانحًا إلى الغلو. فينعتون ثباتها بالعناد وتواضعها بالرياء وصلابتها بالكبرياء ومثابرتها بالطموح المستمر.

ولا يك تفون بالأحكام والأقوال، بل إذا ثابرت النفس على سلوكها هذا، فإن بل الاضطهاد يبدأ تارة متسترًا وطورًا سافرًا وتستعمل كل الوسائل للنيل من النفس وشلها: كالسخرية والوشاية والافتراء أحياناً. ومن يع رف أكث ر من النفس التي كانت ضحية ذلك، كم من الوسائل يستطيع الخبث البشري أن يخترع، وكم من الأسهم يستطيع إطلاقها، وكم من الفخاخ يستطيع نصبها، ليسئ إلى خصم مزعوم؟

لك ن الاضـ طهاد ليس له دومًا هذا الطابع المتطرف بل غالبًا ما يبقى خفيفًا، كما أن هناك نفوسًا لا يس تطيع النيل منها أما لأن وضعها الاجتماعي وأفضالها وحسن سلوكها تجرد العدو من سلاحه وتشله، وإما لأن حـ ياتها الخف ية المنعزلة تبعدها عن ضرباته. ومع ذلك يبقى أكيدًا إن النفوس الروحانية بوجه عام يجب عل يها أن تحسب، عاجلاً أو آجلاً، حسابًا لمحنة الاضطهاد بشكل من الأشكال، وأن تكون مستعدة لمواجهتها بما يؤول لخيرها.

المقالة الرابعة

تصرف النفس إبان الاضطهاد

يج ب أن لا ت دهش النفس عندما تلاقى اضطهادًا حتى إذا أتاها أهل الخير ، بل يجب أن تقتنع بأن هذا الشقاء هو نتيجة حتمية لضيق أفق الفكر البشرى وللأنانية الكامنة في قلب الإنسان.

ل و ك ان لكل الناس أفكار واسعة وكبيرة لكانوا كلهم متسامحين، يحترمون آراء الغير وسلوكه ولا يتس رعون ف ي إداد ة نيات الآخرين وأعمالهم. لا أحد يتساهل مثل الله عن انحرافات الفكر ونقائص الطبع وتقل بات المـ زاج، بـ ل عن الخطايا الأخلاقية لأن أحكام الله لا متناهية في اتساعها وهو يكتفي من خلائقه بالإرادة الحسنة.

أما الإنسان الذي هو محدود من كل وجه، فلا يتصرف على هذا النحو. أنه ينظر إلى المظاهر ويتبع تأث راته الشخصية في ما يحب ويكره. أنه يعترض على كل ما لا يرافق أفكاره الشخصية وطريقته الخاصة في العمل ويود إصلاح الأمور على هواه.

يج ب أن تقتنع النفس اقتناعًا راسخا بهذه الحقيقة. أنها لن تجد أحدًا تستطيع أن تعتمد عليه بلا تحفظ في موافقتها ومساندتها. إن أوفي الأصدقاء واجدر المرشدين بالاعتبار. وابلغ المسارين مودة. وأوفر الرؤساء عطفً ا ورفقً ا ق د لا يلبون نداءنا في الوقت الذي نعتمد فيه على نصيحتهم وسلطتهم. فما دامت النفس غير مقتـ نعة اقتـ ناعًا متأصـ لاً بأن ليس لها أن تطلب عوناً من هذه الأرض، فهي عرضة في كل حين للصدمات وخيبة الأمل. فعلى الإنسان أن يختار بين اعتماده على الله واعتماده على الناس. إن طبيعة الإنسان ضعيفة في

تكوينها بحيث لا يمكن الاعتماد عليها بثقة تامة، والله هو الذي شاء أن تكون الأمور على هذا النحو لكي لا يكون للنفس في أخر الأمر، سند سواه، ولا تستريح إلا فيه وحده.

فمتى بذل المرء ذاته نهائيًا لله لا يعد يأبه لاعتبار البشر. وانتقادهم وعنفهم وسخريتهم لا تستطيع من بعد أن تزحزحه لأنه لم يتخل عن كل شيء في سبيل نيل استحسانهم أو كسب تقديرهم.

مما يستطيع العالم كله أن يؤذى النفس المستسلمة لله؟ فالنفس ليست بحاجة إلى العالم وإلى رضاه. وهي تعلم أن رأى الناس لا قيمة له أمام الله. العالم ليس قويًا إلا ضد من يخافه، ومن يجابه تهديداته وصرخاته يجده عن عاجزًا.

يجب إذن أن تردد النفس دائمًا في أعماق قلبها: سيأتي زمن أجد فيه ذاتي وقد تخلى عنى جميع الناس وحرمت النصح والتشجيع وأصبحت موضوع شبهة من قبل رؤسائي ومرذولة من أترابي. ولكنى لن أخاف هذه الحال لأنني لست بحاجة إلا إلى يسوع.

ومتى تذكرت النفس ذلك وقت الصلاة تمتعت بحرية قلب كبيرة واستقلال عن كل تقدير بشرى. فإذا جاء الاضطهاد والتعيير وهجران الأصدقاء وعدم ثقة الرؤساء فالنفس لا تتأثر لأنها تجاوزت الأجراء التي تستطيع فيها الغيوم أن تلبد وجه سمائها. أنها تعيش في أجواء صافية تسطع فيها الشمس دائمًا. فيقف التناقض عاجزًا ويصبح الاضطهاد أعزل أمام هذا الصفاء وهذا الهدوء الذي لا يشوش. وهذا الثبات في الطباع الذي لا يتقلب.

والله من وجهته لا يترك النفس بلا عون. فكلما استسلمت له ازدادت حمايته لها، وكلما أهملت مصالحها الخاصة وتبريرها الذاتي عظمت عنايته بها وبتقدمها الروحي وهو يستخدم لتحقيق مأربه أعداءها أنفسهم فيجعل من حسدهم وأحاديثهم الخبيثة وعنفهم وحيلهم أداة لإظهار براءة النفس المضطهدة وصوابية موقفها.

ما أعظم أسرارك يا رب! ما على النفس إلا أن تستسلم لله وتضع بين يديه كل همومها ومصالحها ولا تحتفظ في قلبها إلا بمحبته لتشعر السماء بأسرها أنها ملزمة تجاهها فتبادر إلى حمايتها.

إذن فسلوكي في المعاكسات والاضطهادات بسيط جدًا يا يسوع! ليس على سوى أن ارتمى بين ذراعيك، أن اعهد إليك بحمايتي، أن احبك. السماء والأرض تزولان ولا تهلك النفس التي لجأت إليك.

هكذا مهمة النفس الروحانية، لا تتغير أبدًا إذ ليس لها إبان الازدهار والنجاح والهناء والنور وموافقة البشر سوى فعل واحد هو بذل الذات التام ليسوع. كذلك ليس لها في غمرة الظلمات والشقاء والانتقادات والشدائد سوى شيء واحد تفعله: أن تبذل ذاتها لله بمحبة مضطرمة ذلك هو كامل سرها ومنتهى حكمتها.

المقالة الخامسة

بذل الذات وقت المرض

إن يسوع يمتحن النفوس وينقيها بطرق كثيرة مختلفة. فالمصاعب والاضطهادات والجفاف

والوسـ اوس والأحزان الداخلية وخيبة الأمل وفقدان الثروة. هذه كلها رسائل بين يديه تعالى لقيادة النفوس إلى الكمـ ال. قـ د يفهم بعض هذه النفوس محبة الله هذه فتدعه يشذبها حسب ما يشتهي، وقد يدهش البعض الآخر ويتذمر يبتعد من تأثير العمل الإلهي.

بهـ ذا تفتـ رق النفوس الباسلة عن النفوس العادية المبتذلة. فالمحنة واحدة والفرصة السانحة واحدة، والاسـ تعداد الداخلي وحده يختلف. هناك نفوس تملك استعدادًا حسنًا لتكون لله فتستسلم بهدوء لعمله متقبلة ما يقدمه لها من حلو ومر. وهناك نفوس أخرى تنقصها هذه الطاعة المطلقة والشاملة فتبذل ذاتها بتحفظ وتتراجع حالمًا تعاكس المشيئة الإلهية رغائبها أو تكبح مزاجها.

بعضـ ها يثـ بت ناظـ ريه في الله، العلة الأولى لكل شيء ومنظم الأحداث ومقدس النفوس الأسمى، وبعضها الآخر يعتبر الخلائق مسؤولة عن المصائب التي تلم بها.

لا يظهر الفرق بين النفوس الروحانية والنفوس لأخرى بأكثر جلاء مما يظهر في العجز والمرض. فالمرض محك القداسة. وبعض النفوس التي نحسبها راسخة في الفضيلة ونموذجًا يحتذي به في الدقة والنظام، كثيـ رًا مـ ا تـ تهامل وتتراخى إبان العجز والمرض، كما أن نفوسًا قوية كالصخر كانت تظن ذات مبادئ لا تزعـ زع أصـ بحت يـ وم المرض فريسة أهوائها وألعوبة مزاجها. كذلك رأينا نفوسًا شجاعة صقلتها المحنة وقساها الاحتكاك بالمصاعب تتراخى فجأة وتلين كالطين يضغط الألم الجسدي والانزعاجات الناجمة عنه.

مساكين هؤلاء المرضى! عجزهم مزدوج. انهم يبدون رغائب مدهشة ويطلبون أطباء وأدوية وعناية متواصـ لة وعـ ونًا لا ينقطع. يتذمرون عندما ينتقهم شيء أو عندما يمنع عنهم بحق، ويظهرون نفاد صبرهم عندما تطول مدة المرض. أليست لهم ألوف الأعمال الهامة التي لابد من إنجازها وألوف من المشاغل الملحة التـ ي لابـ د مـ ن قضـ ائها؟ يقولون في أنفسهم: "هذا المرض مصادفة سيئة لو أتى في وقت أخر لقبلته بكل ترحاب. أما وقد شرعت في تطبيق هذا المشروع فإنه غير مناسب أبدًا".

هـ ذه الـ نفوس لا يـ نفد صـ برها فحسب بل تقلق قائلة: "من يدرى كيف ينتهي هذا المرض وأية مضـ اعفات قـ د تحـ دث وأية أثار قد يتركها في جسمي؟" إذ تقلقها هذه المخاوف تكاد لا تجد الرغبة والوقت الكافين للقيام بتمارينها الروحية فتعجز كليًا عين الاتحاد بالله باستسلامها استسلامًا تامًا.

أمـ ا النفس المستسلمة للإرادة الإلهية استسلامًا كليًا فتفعل، عكس ذلك. لا تخاف المرض ولا تسعى لاتقائه بحيطة مفرطة، بل تراعى قواعد الوقاية العادية وتتكل، في ما تبقى، على العناية الإلهية. ومتى أصابها المـ رض تقدم حياتها ذبيحة لله، طالبة إليه أن يتصرف بجسدها وبكل أعضائها لمجده الأعظم، ثم تبقى ساكنة وتأخذ العقاقير الموصى بها وتتبع تعليمات الأطباء وتخضع لما يطلبه المعتنون بها، ولا تطلب شيئًا فوق هذا إذ قد بلغت كمالهما في البرهة الحاضرة.

إن اسـ تعدادها الداخلـ ي الذي لا يتغير هو أكمل تسليم لإرادة الله، ليس فقط في ما يختص بالمرض نفسه بل في ما يختص بالظروف التي يحدث فيها المرض والنتائج التي يحدثها. فالله الذي سمح بمرضها يريد أيضًا أن تعطل اهتماماتها وتوقف أعمالها.

هكـ ذا تجد النفس البسيطة سلوكها محددًا في كل الافتراضات الممكنة. تكتفي بان تكون كما يريد الله لها. همها الأوحد أن تحب الإله الذي استسلمت له ومهمة الله أن يدبر كل شيء.

المقالة السادسة

بذل الذات عند الموت

الـ نفس البسيطة تكتفي بمحبة يسوع وتتميم مشيئته الإلهية في البرهة الحاضرة. هكذا تنقضي حياتها رتيـ بة ولكنها سعيدة. فهي لا تشقى لأن الآلام تتحول عندها إلى أفراح، ولا تهتم بشيء لأن يسوع يفكر بكل شيء تحتاجه، ولا تخاف من شيء لأن كل شيء يأتيها عن يد يسوع الذي تحبه وحده.

هكذا تعيش النفس غائصة في الله في أغوار لا تدرك، تستطيع ريح العاصفة أن تعبر بسطحها، لكنها لا تستطيع تعكير قرارها الهادي الصافي.

ما أشهى مثل هذه الحياة، يا يسوع! فضلاً عن أنها مقدمة نهاية أسعد.

مـ نذ أن بذلت النفس ذاتها لله، لم تفكر قط أن تنصب خيمتها على ذاك الطريق المؤدي إلى الأبدية. كل ما تفعله هو أن تتوقف برهة على حافة الطريق لتسترجع أنفاسها وتقيس بنظرها المسافة التي قطعتها.

إن الـ نفس المسيحية الكبيرة تتهيأ بعناية لهذا العمل الأخير. هي تجرب و تموت في كل برهة وفي كـ ل لحظـ ة تتكـ ر ذاتهـ ا، وتضحي لله بكيانها كله وبكل ما هو لديها وبكل ما يمكن أن تحصل عليه يومًا. وتضـ حي له بحياتها ليعود فيأخذها في الوقت الذي يختاره هو وفي الظروف التي يحددها هو. كل برهة من حياتها موت مقبول مسبقًا. عيشة المرء على هنا النحو موت بل انقطاع ومتى جاء الله أخيرًا ليقول: "يجب أن تموتي"، فبم يمكن أن تجيبه النفس عروسه بغير ما يلي "أيها المعلم الصالح إنني لا أفعل شيًا آخر منذ سنين"؟

أجـ ل أيـ تها النفس المسلمة ليسوع ، حياتك موت دائم وتضحية لا ننقطع بذلك كلها، وذبيحة دائمة. وهـ ذه الذبيحة تنتهي على فراش موتك. والضحية وكذلك الكاهن المضحي هما أنت ذاتك، وقد اتحدت بيسوع رأسـ ك. فارتضى بذبحك، إذ إنه لشرف لك أن تضمي تضحيتك إلى تضحية يسوع. من موتك البطيء الشاق تتبع الحياة لك والآخرين. إنك تفتدين العالم مع يسوع ومعه تكفرين عن خطايا البشر ومعه تقدسين النفوس

وهكذا، سوف يأتي يوم. وبما كان قريبًا، تموتين فيه.

مالـ ك ترتعشين يا نفسي لهذه الفكرة؟ سيأتي يوم تقولون فيه: "سأكون بين ذراعيك بعد قليل يا يسوع لقـ د انتظـ رت طـ ويلاً هذه البرهة اللذيذة وما هو إلا قليل من الوقت حتى ينهار الحائط الذي يفصلني عنك فارتمـ ى علـ ى قدمـ يك وتضـ مني إلى قلبك الإلهي. لقد دام طويلاً زمن الغربة يا يسوع. فاضطرت النفس عروسـ ك أن تنتظـ ر طـ ويلاً وأن تكابد كثيرًا من المعاكسات وتتحمل كثيرًا من السخريات ولكن ها هي قد افتقدت وكوفئت"– لا لم يكن عريسها نائمًا: بل كان ساهرًا عليهما يحافظ بغيرة على جمالها وبراءتها ونقائها. إن السماء في عيد والقديسين يتهيأون ليدخلوا العروس إلى رحاب الملكوت السماوي.

أنهـ ا تترك هذه الدار الكئيبة غير آسفة فهي لم تحس فيها يومًا أنها في مكانها وطالما راودها الشوق إلـ ى السماء، كثيرًا ما طعنت قلبها الإهانات التي وجهت إلى يسوع في أرض الخطيئة هذه. كثيرًا ما سممت خياناتها الشخصية أفراحها.

لكـ ن قـ د انتهـ ي كـ لـ هـ ذا ومضى الشتاء، وانقضى زمن الثلوج والصقيع وها هوذا الربيع مقبل والعصافير شرعت في إرسال تغاريدها. ويسوع يقبل ليقول لعروسه الأمينة: "هلمي إليّ من لبنان أيتها النفس حبيبتي وتعالى بقربي فأكللك بالمجد".

وداعً ا يا أرض الغربة فقد طالما بللتك دموعي! وداعًا يا أصدقائي المخلصين، يا أخوتي وأخواتي الأحـ باء الذين سندوني بأمثالهم وشجعوني بأقوالهم. وداعًا يا جسدي الذي تنهار جدرانه أخيرًا، أنني أغادركم غير آسفة واذهب إلى النور، أذهب إلى المحبة، إلى الحياة، أذهب إلى يسوع.

أيـ تها العـ ذراء المـ باركة، افتحي بسعة باب السماء عندما يقف ولدك على عتبة الأبدية. أيتها الأم الحنون تقبليني حينئذ بحنّو وقوديني إلى يسوع.

القسم الثالث

نتائج بذل الذات

الفصل الأول

حياة المحبة

المقالة الأولى

محبة متبادلة بين يسوع والنفس

متى استسلمت النفس أعطى يسوع ذاته بدوره. ذلك هو المبدأ الذي يسوس كل صداقة، وليس صديقًا مثل يسوع.

وعطاء المعلم الإلهي هذا فائق للطبيعة كعطاء النفس وأكثر منه أيضًا. إنه يفوق عادة أدراك الحواس، وليس للعقل إلا أن يستشفه فيما يكون الإيمان موقنًا به، كما أن القلب النقي كثيرًا ما يختبره في الصميم ويتمتع به تمتعًا فائق الوصف بفعل مبادرة رقيقة من يسوع غير أن هذا التمتع ليس في الواقع عطاء يسوع، ولا هو يدل على قدره، بل إنما هو أريج العطر السماوي الذي يحيط بقوى النفس ويتغلغل فيها.

وكما أن القلب يبذل ذاته بكامله، كذلك لا يترفع الله عن بذل ذاته بكامله، فيأتي أقانيم الثالوث الأقدس الثلاثة ويسكنون في النفس ويفيضون فيها عطية النعمة المقدسة التي ترفعها إلى مستوى الله. وهذه النعمة تجعلها ابنة بالتبني للآب، وأختًا ليسوع وعروسًا للروح القدس، وتجعلها وارثة للسعادة ولملكوت الله.

إن مرة واحدة تبذل بها النفس ذاتها حقًا يكون مدعاة لسخاء عظيم من قبل الله. وكل جديد مهما كان سريعًا وضعيفًا تتبعه إفاضة جديدة للألوهية في النفس المؤمنة. وكلما اجتهدت هذه في بذل ذاتها ارتضى يسوع بأن تستحوذ عليه، وهو يدفع النفس من جهة ثانية إلى بذل ذاتها فيجرح قلبها عندما تتراخى، بسهم محبة يجعلها تنتفض، ويلقى عليها يسوع عندما تحس ببرودة حماستها، شرارة من لهبه الإلهي تجعلها تشتعل.

تبارك اسمك يا يسوع! كم من السبل تهيئ لنا حتى نحتفظ بشعلة محبتنا. فتارة تحرك قلبنا وتملأه غبطة فنتصور أن هذا مكافأة لأمانتنا، ولكن غالبًا ما يكون هذا وسيلة لابعاد خطر عنا أو لتدارك سقطة أو لتوحي إلينا النفور من الأشياء الأرضية.

وأحيانًا توقف عملك، فيظهر أن تيارك الإلهي يتوقف فجأة في عروقنا. فتحزن النفس وتقلق لأنها تظن أنك تبتعد عنها وتهرب منها لكنك لا تهرب بل تغور بزيادة في أعماق النفس وتدعوها إلى جمع الحواس والدخول في صميم كيانها، وتدخلها إلى الخدر لتصفي حبها وتنقيه من كل شائبة. وعندئذ تستطيع يا يسوع أن تزداد بذلاً لذاتك وترضى حاجتك إلى العطاء. فإنك إنما تريد قلوبًا فارغة من ذاتها لتملأها محبة. إنك النبع الذي لا ينضب والكنز الخفي الذي لا يثمن.

إن الله هو الصلاح وطبيعته تدفعه إلى أن يبذل ذاته. هو المحبة وقلبه يدفعه إلى إضرام النار فيها. لقد أتى ليلقى النار على الأرض فهل يريد غير اضطرامها؟

أيـ تها الـ نفس المستسلمة! لن يكون بعد بينك وبين يسوع إلا شيء واحد هو بذل ذاتك. وهذا الحب يسلمك إليه ويسلمه إليك، فأنسى كل شيء أخر على الأرض، وأنهلي المحبة جرعات طويلة واشبعي من إلهك فشفتاك ملتصقتان بجنب الإلهي، تستقين منه الحياة وتثملين بمحبته.

أه ما أسعدك يا بنت الملك لا تلتفتي إلى الأرض فأنت نبيلة جدًا وغنية. إنك تجلسين على مائدة ملك الملوك وتتنزهين في جناته التي أضحت ملكًا لك.

المقالة الثانية
اللقاء العذب بين يسوع والنفس
في القربان المقدس

إن الـ ثالوث الأقـ دس يعطى ذاته للنفس المحبة ومعه تأتي كل الكنوز وتسكن فيها. لكن هذا العطاء روحـ ي يفـ وق الحـ واس جدًا، والإنسان، مع الأسف! يعيش كثيرًا من المحسوسات. وقد وجد يسوع وسيلة ليتجـ نب هـ ذه العقبة بل ليزداد بذلاً لذاته. وهذه الوسيلة الفائقة الوصف هي سر "الأفخارستيا". لابد أن يكون لمعلمـ نا قلب جد حنون عندما فكر في الأفخارستيا. ما اعظم ما كان ارتعاشه عندما فكر في النسيان المخجل الـ ذي قـ د يلحق به في بيوت القربان، وما اعظم ما كان انتفاضه فرحًا مسبقًا، لدى رؤيته النفوس المزمع أن يسعدها حبه الأفخارستي حتى انقضاء الدهور!

يـ ا يسوع ما عسانا أن نكون بدونك، بدون حضورك الحقيقي؟ كم تكون حياتنا عندئذ كئيبة وفارغة! أيـ ن كـ نا نسـ تريح في ساعات تعبنا؟ أين كنا نجد التعزية في أوقات حزننا وإلى أين كنا نتجه بدون القربان المقدس، عندما تعذبنا الكابة السوداء وآلم الحنين إلى الوطن البعيد.

تبارك اسمك كل حين لأنك أعطيتنا ذاتك بهذه الطريقة التي تفوق الوصف، ونكاد نقول أيضًا بطريقة بشـ رية قريبة المنال لقلبنا. وهكذا فإنك تشترك معنا في كل أحزاننا وكل أفراحنا، وفي كل حين تتوق نفوسنا لتنسكب في قلبك. وأما أنت فتأتي كل صباح لتسكن فينا وتتجدد بصورة سرية بطبيعتنا مازجًا جسدك المقدس بطيننا وساكبًا دمك الكريم في عروقنا. يا له من اتحاد عجيب مثمر، به قلبك ينقى قلبنا ويؤلهه.

أيها الرب الحاضر في القربان المقدس! ما أوفر الهناء الذي تفيضه في النفوس. وما أعظم المسرات التي تغدقها على بنى البشر لتكافئهم وتقويهم وتحفظهم. وما أكثر البطولات التي تثيرها بلا انقطاع فيهم!

أيهـ ا المسيحي الحقيقي العائش في العالم، المعرض للسخرية والاضطهاد، بادر إلى اقتبال إلهك في القربان المقدس، فتتقوى وتحدق بالهازئين وتتحدى التنغيص والمعاكسات لتوسع مملكة مسيحك المحبوب.

وأذ ت أيـ تها الـ راهبة الساهرة دومًا عند أسرة المرضى تعاينين الجروح الكريهة والقروح البشعة والأمـ راض المنفرة، ألا اقتربي أولاً من يسوعك وتقبليه بشوق مقدس، ومن ثم، وأصلى، قوية جذلة، حياتك الرائعة في التفاني حبًا بمعلمك الذي تحملين في قلبك.

وأن ت أيها الكاهن الغيور، الرسول الجسور، تذكر إبان أتعابك الرسولية بعيدًا عن الذين تحبهم وقد ت ركتهم، ف ي ع زلتك، بين اللامبالين وغير المؤمنين في هذا العالم، وسط المتاعب والصعوبات، تذكر أن يس وع، ف ي ك ل صباح عند دعوتك له، ينزل على يديك المقدستين ليعطى ذاته بواسطتك للنفوس العطشى إليه... عند ذلك تتمنطق بالقوة والشجاعة ولا ينالك تعب في جهادك.

وأن ت أي تها ال نفس العزيزة أيا كنت، مجهولة ومختفية عن عيون الناس، المنكبة على عمل شاق م تعب، ارفعي عينيك إلى القربان المقدس وليكن ملجأك إبان الحزن، فيسوع حاضر هناك من أجلك. عندما انش أ هذا السر ميزتك عينه الإلهية بين سائر النفوس وتأثر قلبه نظر أحزانك. فتقدمي إليه الآن وأنت أمامه، غير هيابة، لأن من حقك أن تنالي قوة وتعزية ويسوع يعرفك ويحبك.

ي ا ص ديق نفوسنا الإلهي! إننا نعبدك باحترام ونحبك بحرارة، ننحني أمامك بإجلال ونعانقك برقة وح نان، نج ثوا ع ند قدميك بتواضع عند نظرنا عظمتك وحقارتنا ونلقى جبهتنا بثقة بين يديك لأنك صديق نفوسنا وأخونا الحبيب. لقد أعطيناك كل شيء يا يسوع وإننا مقابل ذلك نمتلكك.

المقالة الثالثة

الخدام الأمناء

في بذل الذات درجات وكذلك في عطاء يسوع. فبين القلوب المكرسة له والتي لا تحصى خدام أمناء وأصدقاء سريون وأبناء مستترين.

تل ك مراحل ثلاث تقابل درجات الارتقاء إلى الله وتؤلف سلمًا في الألفة التي تستطيع أن ترتقي بها ك ل النفوس إلى يسوع الذي يدعوها. إنه يعطى ذاته للنفس لدى أول محاولة منها لتكون له وذلك كما يعطى السيد الصالح ذاته لخدام البيت الأمناء.

إن فك رة الخادم الأمين لمعلمه أخذة في الضعف في مجتمعنا وهي تكاد تنحصر في بعض العائلات العريقة في مسيحيتها.

الخ ادم الأم ين ينفذ الأوامر المعطاة بدقة ومحبة. يحب معلمه ويفتخر بخدمته. همه الأساس ليس الأجرة لأنه يعرف أنه لن ينقصه شيء. وهو يحس بأنه عضو في الأسرة أهل البيت يحوطونه بمودة ممزوجة بالاحترام.

الخ ادم الأمين كنز ثمين وسيده يدرك ذلك ويعهد إليه بأعز مصالحه. هو يعرف أن أمواله في أمان ب ين يدي ه، بل يحتمل الموت عند الحاجة ليخلص معلمه. لذلك يوليه معلمه ثقة لا حد لها ويغدق عليه النعم والعطايا الجزيلة. وكلما شاخ الخادم في خدمته زادت محبة المعلم له وإكرامه إياه.

ه ذا ه و نصيب كل إنسان تخلى عن ذاته ليكرس نفسه لمصالح يسوع المسيح. هذا المعلم الإلهي يدخل ه خدم ته ويعهد إليه بحاجات بيته ويستودعه مصالح مجده والدفاع عن كنيسته ونشر الإنجيل. ويكلفه بمحاربة الضلال ونشر الحقيقة وتشهير الرذيلة وتشجيع الفضيلة.

أمثال هؤلاء الرجال يكونون في الصفوف الأولى من جيش المسيح وهم يعرفون من غيرتهم التي لا تعـ ـرف الكلـ ـل، وتجّـ ـردهم، وأمانتهم وإخلاصهم. إنهم، كما يقول أحدهم، يخدمون الله بجسارة وعناد. هم لا يعرفون المساومات ولا المهادنة، والأعداء يعلمون عنهم كل هذا ولذلك يخشونهم.

هـ ـؤلاء هـ ـم العمال الرسوليون المتأهبون دومًا لحمل نير يسوع والعمل على توسيع ملكه. تلك هي الـ ـنفوس الصـ ـالحة المكرسة لله والتي تقضي حياتها في تعزية المنكوبين والاعتناء بالمرضى ونشر الإيمان المسيحي. هذا هو الجيش العرمرم من الرجال والنساء الذين وقفوا حياتهم على أعمال البر. وجعلوا قواهم في خدمة القريب، وبذلوا أموالهم لمساعدة المساكين، واستخدموا مواهبهم للدفاع عن الحقيقة.

إن يسـ ـوع يعـ ـرفهم كلهـ ـم بأسـ ـمائهم، وهو فخور بخدماتهم ولهذا فهو يعاملهم كأبطال، ويدخّر لهم الجـ ـزاء، يشحذ هممهم دومًا للعمل. لكنهم يعرفون أنهم الخدام المحبوبون وإن المعلم يثق بهم. لذا فإنهم يبُلون بالحديد والنار، من اجله. لا بل إنهم يريقون أخر قطرة من دمهم من أجل مجد اسمه.

وإن ليسوع عددًا وفيرًا من الخدام الأمناء، وهم يشكلون السور الخارجي الذي يحمى مدينة الله.

المقالة الرابعة

الأصدقاء الأصفياء

إن الله يعطـ ـى ثقته للخادم الأمين، لكنه يعطى قلبه للصديق الخاص. والنفس التي أسلمت ذاتها مرة لله، تـ ـتوق إلـ ـى تجديد هذا العطاء. والشواغل والمعاكسات والآلام وأتفه حوادث الحياة اليومية تكون فرصة سانحة لتجديد بذل الذات لله. فالقلب، كالمادة القابلة للالتهاب، تكفي أقل شرارة لإشعاله.

فمتـ ـى توصـ ـلت النفس إلى درجة المحبة هذه، فإن يسوع يعاملها كصديقة. وليس من لذة تعادل لذة صداقة يسوع، هذه الصداقة التي يدرك معناها الدقيق بالقلب لا بالعقل.

إن الصديق يعطى محبته ويسلم ذاته كليًا إلى هذه المحبة. أما السيد فيعطى ثقته، ويكل بمصالحه إلى خادمـ ـه دون أن يطلعـ ـه علـ ـى أسراره أو أن يقربه منه ليتحدث إليه بألفة وبساطة، فهذا الامتياز قد خصص للصـ ـديق الحبـ ـيب حسـ ـب قـ ـول يسوع[25]: "لقد دعوتكم أصدقائي لأنني أطلعتكم على كل ما سمعته من أبى السماوي".

عجـ ـيب هـ ـذا التجاهل من يسوع لمقامه الإلهي، فإنه يعامل النفس معاملة الند للند! أليس في هذا كل دلائـ ـل الصـ ـداقة الحقيقـ ـية؟ فـ ـإن الأصدقاء متساوون، أو يجب أن يصبحوا كذلك. ويسوع يضع نفسه حتى حقارتـ ـي، ويرفع حقارتي حتى ألوهيته. السيد البشرى يبقى بينه وبين خادمه كرامة الرفعة والسلطان، أما بين يسـ ـوع الـ ـنفس صديقته فيبدو انه ليس هناك من حاجز، بل فيض محبة واشتراك في الأفراح والأحزان وثقة واستسلام تامان.

[25] يو 15:15.

وبي نما يكـ ون الخادم منهمكًا، بأمر سيده، كالمشاغل الخارجية، يتفرغ الصديق الجالس بالقرب من صديقه الإلهي للمناجاة الروحية. فبينما كانت مرتا منهمكة في خدمة يسوع وتلاميذه كانت مريم جالسة بهدوء عـ ند قدميّ المعلم. فيسوع قد ألهم الأخت الكبرى نشاطًا معتدلاً، وهو مسرور بخدماتها، لكن ناظريه يستقران بحـ نو خـ اص على الأخت الصغرى. فالأولى أكثر نشاطًا، أما الثانية فأكثر محبة، واحدة تجعل نفسها خادمة نشيطة والأخرى تتوق لتكون صديقة يسوع. وعندما ينهي المعلم كلامه، تعود مريم إلى عملها، بنشاط لا يقل عن نشاط أختها الكبرى، لكن عملها يحظى بتقدير أوفر من يسوع ، لأنها أكثر محبة.

أه! ما أسعد حال النفس صديقة يسوع، فهو يطلب منها الشيء الأكثر عذوبة: المحبة، أما من الخادم فـ يطلب الطاعة والأمانة أولاً، وأما من الصديق فيطلب القلب. ومتى أعطى القلب مرة، تصبح النفس ليسوع فتسـ عى لإرضائه في جميع رغباته. الخادم يحتفظ بحريته، وأما الصديق فيضحي بها لإرضاء صفيه وإعلاء مجده.

أيتها النفس العزيزة، اقتربي من يسوع فصلاحه لا حد له، وهو يحبك ويدعوك صديقته. إنك خاطئة، ولا شك، لكن محبتك كفيلة بأن تفتح لك أبواب صلاحه وسيغفر لك كثيرًا إن استطعت أن تحبى كثيرًا.

إن يسـ وع ينسى الخطايا وهو، على عكس البشر، لا يحفظ في أعماق قلبه أية مرارة. يا يسوع أنى أومـ ن بهذا، أومن به أيمانًا ثابتًا ولن اشك في ذلك مطلقًا، ألم اشعر بفرط صلاحك المرة تلو المرة؟ ألم أسكب الدمع وأنا أقرا وأعيد قراءة مثل الابن الشاطر وإنجيل الراعي الصالح وتوبة المجدلية وحنانك المؤثر تجاهها؟ ما أعظم صلاحك يا يسوع!

إن قلـ بك تأثر لرؤية أرملة نائين المسكينة تتبع باكية جثمان ابنها الوحيد، فأحييته. وفاض قلبك شفقة لرؤيتك حاجة الجموع التي هرعت إلى القفر لتسمع إليك، فأشبعتها بأعجوبة. وتأثرت نفسك واضطربت لرؤية حـ زن مـ رثا ومريم فبكيت، يا يسوع، وأقمت أخاهما من الأموات. وتحننت على الجموع الهائمة كخراف لا راعى لها فكثرت من جولاتك الرسولية في فلسطين ناشرًا العجائب وشاملاً بإحسانك كل من صادفت.

وماذا عساني أن أقول إن أنا عددت دلائل حنوك علىّ خاصة؟ غير أنه لا بد لي من أن اصمت عن ذكـ ر هذا، أليس كذلك يا يسوع؟ لا! لا! إنك عندما تجتذب القلب تقوده، مختليًا به، فتكشف له أسرارك بعيدًا عن كل أذن غير كتومة.

يـ ا يسـ وع، أنـ ى أتبعك في خلوة قلبي واسمع صوتك يدعوني هناك وأنا أعرفه جيدًا، فقد دعاني– وا أسـ فاه! مـ رات كثيـ رة دون جدوى، وكثيرًا ما خنقه ضجيج أشواقي الخيالية ومخاوفي الباطلة وشواغلي الطائشـ ة. كنت على الباب يا يسوع تقرع وتنتظر... كل قلبك العطشان إلى المحبة يطلب نفسي وأنا أتوارى وأتهـ رب. أما الآن يا يسوع فأنا أخصك. لقد أعطيتك ذاتي وأنت تقبلتني بفرح، وفتحت لي قلبك وأريتني فيه مكاني الذي ظل شاغرًا مدة طويلة.

إننـ ي أريد أن أنسيك بفرط محبتي ذلك الانتظار الطويل المؤسف، وأما صداقتنا فلن تعرف الأقول. فاشـ ملني بعيـ نك السـ احرة يا يسوع فأنا قد أسلمت أمري إليك وهب أبادلك المحبة وأعوضك عن المساوئ الكثيرة التي اقترفتها تجاهك.

المقالة الخامسة

أبناء الله

هل تسمعين يا نفسي صوت الله أبيك؟ إنه يدعوك إلى ألفة اعظم. فأنت خادمته وصديقته، وهو يريد أن يجعل منك ابنته.

إن السـ يد يولي خادمه الأمين ثقته ويخص صديقه بمودته وأما ابنه فيشركه في حنانه الأبوي. وهذا الاتصال الجديد البالغ العمق من قبل الله هو ثمرة بذل الذات الذي أصبح عادة وطبيعة يرد عليها الله بألفة من نوع جديد، فيعامل النفس كابنته المحبوبة.

إن الصـ ديق لا يـ زور صديقه إلا فترات متقطعة والنفس صديقة الله لا تستطيع أن تخاطبه بطريقة مسـ تمرة، فالشواغل والمهام والمتاعب تمنعها عن ذلك. وهي تسهر بعناية على الإكثار من تمارينها الداخلية وتأملاتها وفحص ضميرها وقراءاتها الروحية.

أمـ ا الابن، فهو لا يترك البيت الأبوي إذ انه ليس صفيًا بل ابن البيت، وهو لا يقوم بزيارات لوالديه بل يمضى حياته بقربهما، فيعمل ويلهو في كنف والديه ورعايتهما.

والنفس ابنة الله تقوم بما يفرضه عليها الواجب، وفي ما تبقى فهي تلتصق بالله بحرية تامة وتقرا في عيني أبيها حتى أقل الرغبات وتتممها حالاً. وعندما تتمم هذا الواجب، غالبًا ما يدعوها الله إلى أن تزداد قربًا منه.

والـ نفس الطيعة تستسلم لكل مظاهر حنان إلهها. فلا تفيض بأحاديث باطلة أو بسيل من الأقوال بل تريح نظرها بهدوء وحب في عيني أبيها، ففي هذه النظرة البسيطة كل قول.

علـ ى الصـ ديق أن يسهو على مصالحه الشخصية وعلى مصالح أسرته، وان يحسب وينظم نفقاته ويـ رتب ميزانيته. والنفس صديقة الله لا تتخلى عن الاهتمام بتقدمها في الحياة الروحية بل توجه كل جهودها إلـ ى الـ تقدم والى تقليل خطاياها إلى إدخال حبها لله في كل شؤون الحياة. فحياتها تمرين وصراع وعمل لا يتوقف.

أمـ ا ابـ ن الله، فهـ و لا يحتقـ ر هذا الجهد الشاق ولا يستخف به لكنه يعتبر أن هذا العمل ليس من اختصاصه. فهو ابن البيت، والأب والأم يعتنيان بشؤونه التي هي شؤونهما. إنه ينفذ بطيبة خاطر ما يأمره به أبـ وه. وإن أخطأ تداركت أمه الحبيبة كل شيء. ليس له أن يحطاط للمستقبل أو يهتم به، بل أن يرضى أباه، وأن يحب في كل لحظة وأن يظهر له ذلك بالحنان الذي لا حد له وبالطاعة العمياء.

إن حياة أبناء الله الحقيقيين تخفي على عيون الناس. فالله يخفي هذا الكنز عن الأنظار الغريبة. ثم إن العالم لا يفهم حياة تقضى كلها في خدمة الله ومحبته. انه يهزأ ببساطة الصديق الذي يحتقر خيرات هذه الدنيا. وكـ ذلك النفوس المسيحية العادية لا تدرك أكثر من سواها سمو حياة مكرسة ليسوع، فتظهر لها النفس الهائمة بالله عاطلة عن العمل وغير نافعة للأرض. أنها تبحث عن النشاط والحركة والعظمة، أما الحياة التي كرست لخدمة الله في الخفاء والعزلة، فتظهر لها بدون قيمة أو نفع للكنيسة.

والنفوس الصالحة والعزيزة على الله، التي لم تصل بعد إلى القمم التي يقطنها أبناء الله قد تعجب هي أيضً ا أحيانًا لبساطة حياتها. أنها تظن أن القديسين يتميزون بخدمات ممتازة أدوها للكنيسة، وبفضائل باهرة، ث م تلاحظ أن كل شيء فيها هو على عكس ذلك بسيط ويكاد يكون عاديًا فتتساءل أين الفضيلة، أين القداسة؟ أنه ا لا ت رى إلا أعمالاً عادية ووجودًا عاديًا وشواغل مبتذلة، فليس هناك من تقشف أو صلوات طويلة لأن نفوس أبناء الله تكتفي بأن تسير سيرة العامة من سواد الناس. إنها بشوشة بالحقيقة، ومهذبة ومحبة، لكنها قلما ت رى في المجتمع، كما أنها تكون أحيانُا قليلة الاطلاع على الحوادث الجارية والمجاملات العالمية وأحيانًا لا يكون لها تأثير في أترابها، ولا أهمية ولا شهوة.

ي ا إلهي، ما أكثر ما يخطئ الناس في تقدير استحقاق أبنائك! أن هذه الحياة البسيطة والخالية من الأبهة، المستسلمة كلها لمحبتك هي الحياة المتسترة مع يسوع المسيح في الله، هي الحياة التي عاشتها الأم المعظمة، سلطانة القديسين، هي صورة طبق الأصل لحياة يسوع البسيطة والمجهولة.

صحيح إن هذه الحياة المنسية والمزدراة والمعذبة كانت عثرة لليهود وجهالة للأمم[26]. وصحيح أيضًا أنها في عصرنا هذا هدف للسخرية والتحقير من قبل حكماء العالم، ولكن هل هذا يقلل من قداستها وسموها.

أي تها النفس السعيدة، ابنة الله المستترة، ما أقل اهتمامك بأعمال أبناء هذا الدهر وسخريتهم وهزئهم! إنك تعرضين عن ذمهم وافتراءاتهم! إنهم لم يدخلوا يومًا القصر الذي تسكنينه فأعينهم لا تستطيع تحمل البهاء الذي يسطع به هذا المسكن السماوي وآذانهم لا تستطيع سماع اللغة الإلهية التي تسمعينها هناك. أنك تنتمين إلى عالم أخر غير عالمهم وتعيشين متسترة في الله، فأنت ابنته المصطفاة.

يا ابنة الملك! ارتفعي إلى شرف أصلك الإلهي ولا تقلقي البتة لما يتعلق بثروتك الروحية. بل تابعي حياتك البسيطة في حضن الله، وتممي مشيئاته واحبيه بغير حساب ولا تخافي البتة: فأنت غنية بحكم حقك في الإرث السماوي.

[26] 1 كو 23:1.

الفصل الثاني

حياة نسيان الذات

المقالة الأولى

معني نسيان لله

الـ نفس التـ ـي استسـ ـلمت لله لم تعد ملكًا لذاتها ولم يبق لها في نظرها وجود، لم تعد تحيا بذاتها، بل بالذي تكرست له، ولم تبق لها مصالح غير مصالح سيدها.

نسيان الذات هو الشريعة العظمى لكل حياة روحية ومعناه أن نقصى عن أعمالنا وأوجاعنا وصلواتنا كل حساب بشرى وكل أنانية ومحبة للذات.

نسـ ـيان الذات يعنى أن يتقبل المرء ببساطة من يد الله كل عذاب وكل صعوبة دون تذمر أو اعتزاز ودون النظر إلى طبيعة الحدث ومدته كما لو كان ذلك يصيب شخصًا غريبا عنه. إنه يعنى الاعتدال في طلب المسرات الشخصية والهرب مما هو محرم منها. فلا ينتقي مما تبقى إلا ما هيأته العناية الإلهية.

نسـ ـيان الـ ذات يعنى أن يقدر المرء نفسه على حقيقتها أي كسقط خاطئ، وألا يشغل ذاكرته وذاكرة الآخرين بشخصه ومزاياه وأعماله، بل أن يتجنب إلقاء نظرة قلقة وطويلة إلى أوهانه. انه يعني الاحتجاب عن أعيننا الخاصة بفعل الإرادة حتى لا نجد في ذاتنا وفي الآخرين سوى يسوع ومشيئته المقدسة.

لقد قال يسوع: من يريد أن يتبعني فليكفر بنفسه. ولذا فمن أراد أن يكون له نصيب من قيامة المسيح فليـ ـرض أولاً بـ ـأن يمـ ـوت معه. ومن أراد أن ينهض من القبر مع يسوع ممجدًا فلينزل إليه معه أولاً. ومن اشتهي أن يجد خلاص حياته فليهلكها.

إذن فنسـ ـيان الـ ذات هو نكرانها والإماتة والتواضع والموت بالنسبة للعالم، نسيان الذات هو التجرد الشامل.

ومـ ـا الـ ذي يجرد النفس المستسلمة لله هكذا؟ إنه الحب والحب جبار غيور يطلب كل شيء ولا يرد شـ ـيئًا. ومتى هيمن على النفس كلها جعلها أفقر الخلائق. إن النفس العادية تستطيع استدراك المستقبل وتهيئة المناهج ورسم المشاريع. أنها تستطيع اختيار شواغلها ومسراتها وهي تستدعى تقدير الآخرين واعتبارهم إنها حرة في إبداء المودة والصداقة أو حجبهما.

أمـ ـا الـ نفس التـ ـي استولى عليها الحب فقد أضاعت كل شيء فهي لا تسود عقلها ولا أرادتها ولا مشـ ـاعرها ولا وقتها ولا صحتها، إذ لم يترك لها شيء. لقد نزعت منها أشواقها وميولها ومؤهلاتها وكل ما هـ ـو ثـ ـروة للآخرين وفخر لهم. ذلك كله قد انتقل إلى خدمة سيدها. والنفس ترضى بهذا التعري فتنعم برؤية ذاتها مسلوبة من ذاتها. وتخشى أن تسترجع ما هو لها وتستعطف يسوع حتى لا يرده لها أبدًا.

علمنا يا يسوع أن ننسى ذواتنا.

المقالة الثانية
كيف تنسي النفس البسيطة
ذاتها في كل شيء

إن الـ نفس التي نسيت ذاتها تسكن أعماق الله. وحياتها، في بساطتها، ملأى بالعجائب، لكنها متوارية عن أنظار الإنسان العامي.

لا فرق بين النفس المستسلمة والنفس البسيطة. فالنفس المستسلمة بكاملها لله لا تملك سوى نظر واحد تثبـ ته فـ ي الله. إنهـ ا لا تملك سوى حركة واحدة توجهها في كل أعمالها نحو الله وتثبتها فيه، دون أن تعود فتنزلها نحو نواتها.

البسـ اطة تـ بعد بطبيعتها كل تفكير. فالنفس المستسلمة لله لا تفكر بذاتها ولا بأعمالها الصالحة ولا بـ نقاوة سيرتها ولا بالاستحقاقات التي تكدسها بلا انقطاع. أنها لا تتساءل عما يفكر بشأنها الآخرون. وهي لا تطلـ ب لذاتها الرضى والحظوة حتى ولا عطف أي إنسان، لأنها لا تستطيع أن تدعى شيئًا ما دام أنها ليست بشيء.

الـ نفس المستسلمة ليسوع تحب معلمها الإلهي بحرارة وتظهر له هذه المحبة بمختلف الطرق. وتجد فـ ي كـ ل حين طرقًا جديدة لترضى يسوع لأن المحبة خلاقة الأساليب. لكن هذه المحبة هي أيضًا بسيطة ولا تتكمش على ذاتها.

هـ ذه الـ نفس تحب في الشدائد والتجارب والظلمات والأحزان، كما في أوقات النور والصفاء. وإذا وجه إليها يسوع فيض حنانه وغمرها بالفرح والمسرات نهي تتقبل عطاياه بشكر واستسلام.

الـ نفس البسـ يطة لا تسـ أل يسوع أبدًا عن دوافع تصرفه نحوها لأنها كالطين في يد الخزاف ترى الأشـ كال التـ ي يعطيها لها يسوع غريبة وغير مدركة ولكن هل يستطيع الإناء أن يقول لصانعه: لِمَ صنعني علـ ى هـ ذا الشكل؟ كذلك ترى النفس أن السبل التي يقودها فيها مرشدهما الإلهي لا يسبر غورها ولكن هل بإمكانها إسداء النصح للحكمة الأزلية؟ أنها تتقدم بلا خوف تحت إرشاده دون أن تحدق قلقة في مستقبل تجهله ودون أن تهـ تم بماض لايحيا إلا في الله. إن الحاضر وحده يشغلها، ولكن من غير تعلق مفرط، لأنها تعرف أن كل عمل وكل اهتمام على هذه الأرض إنما جعل لتمضية الوقت. ولذلك لا تميز بين الأعمال المختلفة التي تفرضها عليها الطاعة: كل شيء حسن في عينها لأنه من الله يأتي.

وقد تكون الخدمة التي يطلبها الله منها مستحبة أحيانًا ومطابقة لرغباتها، فتشكر الله على ذلك وتتقبل مـ نه ببسـ اطة هذا السرور من غيران تتوقف عنده. ويكون العمل صعبًا أحيانًا ويعرضها لمفاجآت مكروهة وعلاقات متعبة وإذلال واضطهاد. إلا أن النفس التي نسيت ذاتها لا تعير أي انتباه ما يعذبها أو يذلها، فهي لا تعـ يش لـ ذاتها بل لسيدها. أنها لا تأبه بإهانة توجه إليها أو باحتقار تتعرض له، وكيف السبيل إلى رؤية هذه الأمور وقد تناست وجودها، لذا تراها تواصل العمل الذي بدأته لمجد الله بكل هدوء، وإن رزحت تحت عبء المهمة ولو سحقتها ضربات الشتيمة والاضطهاد.

إن بس اطة النفس وتجردها غالبًا ما يثيران الدهشة في العالم حيث كل شيء رياء وأنانية. ويحاول الـ ناس أحيانًا استغلال هذه الاستقامة والسذاجة، فينصبون لها شراكًا ويحاولون التغرير بسلامة طويتها. لكن النفس البسيطة التي ليست في نظر ذاتها شيئًا، والتي نسيت ذاتها، لا تؤثر فيها المفاجأة لأن التعامل ليس معها سل مع الله، وليست هي التي يحاول الناس إلقاءها في الحيرة والارتباك بل الله نفسه.

المقالة الثالثة

النفس البسيطة تحب الصليب

إن الـ نفس التي نسيت ذاتها بالكلية تقوم بكل أعمالها ببساطة بإرشاد نيتها السليمة دونما انكماش أو أناند ية، إنه ا ش كورة دومًا لله على كل أعماله وتدابيره. وسيان عندها العافية لو المرض، اليسر أو العسر، الحياة أو الموت، تتقبل الأم برضى، بأي شكل يعرض لها، لأنه دومًا من المسيح يأتي.

إن الإنس ان الذي ينقصه الإيمان الحي يكتشف دومًا يسوع وراء الحجب التي تحيط له، فقليلون من الذين عايشوا يسوع عرفوا انه المسيح الحقيقي. ولقد أثار دهشة الرسل والمجدلية بالمظاهر التي كان يتراءى لهـ م فـ يها بعد موته وقيامته. أما الآن فهو لا يزال معنا في القربان المقدس بصورة سرية خفية عن العيون البشـ رية لكن النفوس اليقظة التي غمرتها المحبة تتعرف على للعلم من الصليب الذي يلازمه والذي خلص به العالم وأراد لكل أصدقائه أن يكون لهم منه نصيب.

أيـ تها النفوس العزيزة، عندما يلّم بك الأم قولي: " هوذا يسوع يمر"، وبادري إليه ولا تتركيه منحنيًا تحت ثقل حمله بل مدي ساعديك وقدمي كتفيك لتشاطريه حمل صليب فإنما مر بك ليدعوكِ إلى مساعدته. لا تتعجب ي مـ ن تـ نوع الصـ ليبان التـ ي يـ نعم بها عليك وكثرتها. فالمعاكسات والآلام النفسية وأحزان القلب والاضـ طهادات والفشـ ل والعسر المادي والضيق المعنوي والعاهات الجسدية. تلك كلها صور لصليب يسوع علينا أن نتقبلها، "من أراد أن يتبعني، فليكفر بنفسه وليحمل صليبه ويتبعني"[27].

ولكـ ن إلـ ى أيـ ن يقود المسيح النفس؟– إنه يقودها إلى الجلجلة إن كانت أمينة فتعلق على الصليب وتمـ وت عليه فيقول لها يسوع: لقد زرعتك في الأرض يا حبة الحنطة الصغيرة لتموتي فيها وتنحلي، ولكن متى مِتِ تنبعث منك الحياة وتنبت ساق جديدة من قلبك وعلى هذا الساق ساق الحياة وتخصبين.

يـ ا لسـ ر الصـ ليب! لابد لنا من أن نموت لنحيا، فالإيمان يعلمني ذلك والعقل يوحيه إليّ والطبيعة بأسـ رها تشـ هد بـ ه. فلكي اصبح شيئًا يجب أن ارتضى بأن اتلاشى وكأن أنسى ذاتي وبأن ألقى في الأرض وأفنى فيها.

آه! كـ م أود أن أكـ ون حـ بة الحنطة هذه، المدفونة في أحشاء الأرض. إني اشعر بأن يسوع يبقيني سـ جينًا على هذه لأرض فحياتي تنقضي وكأنها عقيمة. والقوى التي أعطانيها الله تضمحل وتفنى لا في خدمة القضـ ايا العظـ يمة المقدسـ ة، بل في بطالة قسرية تبدو بلا نهاية. هذا هو القبر، هذا هو الموت! ولكن ماذا

[27] مت 16: 24.

يضـ يرني، فـ إن يسوع يرعني بعينه الساهرة، ولسوف يبعث الحياة والخصب من قبرى متى ارتضى ذلك، وعندما يكون دور جهادي على هذه الأرض قد تم.

المقالة الرابعة

كل شئ يدعو النفس إلي أن تنسي ذاتها

أيـ تها الـ نفس العزيزة، إنك مرتبطة بإلهك في كل شئ حتى في أقل شؤون حياتك أهمية، وله عليك سـ لطان مطلق. فلا وجود لك إلا به ولا يمكنك أن تحيى إلا له وبحسب مشيئته. أليس من العدل أن يكون هو محـ ور كل أعمالك ورغباتك وأفكارك وكل مالك وكل كيانك؟ أليس من العدول أن تنسى ذاتك وتمحى أمامه؟ إلا أن طبيعتـ نا ضـ عيفة يا يسوع وهى تحاول قلب النظام الذي وضعته وتسعى أن تحل محل الله وتجعل من ذاتها المحور الذي تدور حوله كل الخلائق، حتى الله نفسه.

عجـ يب أمـ ر هذا القمر فهو يحاول أن يأخذ مكان الشمس وهذه الحبة من الرمل تتطاول كي تكون جبلاً، ونقطة الماء تتشامخ لتملأ المحيط الكبير.

يـ ا لفساد الفهم البشرى وانحرافه! لقد جعل العقل البشرى من ذاته إلهًا، وقلب عرش الله، وقدم ذاته للعـ بادة، وأعلـ ن حقوقه تجاه الله وأملى عليه واجباته، وأعطى البشر الحرية بأن قيدهم بقيود الشيطان وجعل المساواة بأن أقام على نفسه طغاة ونشر الأخوي بعد أن أزال المحبة.

وما فعلته الكبرياء الجماعية تفعله كل يوم الكبرياء الفردية فينسى المرء انه كائن من العدم قائم على التبعـ ية، لا يحيا إلا بواسطة الكائن الأسمى وإلا من اجله فتراه يزهو بكرامته ويقيم نفسه سيدًا مستقلاً ويبسط سـ لطانه علـ ى كـ ل ما يحيط به ويرفض بتحدٍ وقح أن يؤدى واجب الخضوع الذي يطلبه الإله الأزلي مبدع الخليقة كلها.

"استمعي أيتها السماوات وأنصتي أيتها الأرض فإن الرب قد تكلم. عرف الثور قانيه والحمار معلف صاحبه لكن إسرائيل لم يعرف وشعبي لم يفهم[28]. إني ربيت بنين ورفعتهم لكنهم تمردموا على[29]".

لقد قلبت الخطيئة أوضاع الطبيعة البشرية المسكينة فأصبحت لا تحلم إلا بالاستقلال والعظمة وباللذة والغنى، بينما يهيب بها كل ما في الكون أن تتضع وتزهد في مقتنيات هذا العالم.

أمـ ا إشارات الموت الكثيرة التي أحاط الله بها الإنسان فلم تسكن إلا ليعلمه أن يفتش فيها عن الحياة الحقيقية.

كل الأصوات التي تطرق سمعه تدعوه إلى نسيان الذات ليصل إلى المجد الحقيقي. كل المسالك التي تطأها قدماه لا تقوده إلى النور إلا عبر الظلمات. كل ما حوله وما في داخله ينبئه أنه اخذ من العدم. فهو يرى جسـ ده يتداعى تدريجيًا ويسير في طريق القبر يومًا بعد يوم. ويرى أحلام السعادة التي هدهدت صباه تتلاشى

---

[28] أش 1: 3.

[29] أش 1: 2.

واحـ ـدًا فـ ـواحدًا كأطياف عابرة. لقد ظن أنه حر مكرم محبوب وذو سلطان. لكن الواقع الأليم يريه انه تحت رحمـ ـة الأحـ ـداث وانه ألعوبة تلهو بها مخيلته وضحية جشع الآخرين وأنانيتهم، كل شيء يردد أمامه انه في غاية الصغر والحقارة، كل شيء يدعوه إلى أن ينسى ذاته ويتضع جدًا.

مـ ـا أعظـ ـم السـ ـعادة والحرية التي تتمتع بهما النفس لو عرفت أن تصغي إلى هذا الصوت وترجع بتواضـ ـع كلـ ـى إلـ ـى العـ ـدم الذي أخذت منه، واستطاعت أن تعيد نهائيًا النظام الذي طالما خرقته بكبريائها وعنادها.

المقالة الخامسة

المحبة تسهل نسيان الذات

إن نسـ ـيان الـ ـذات يخـ ـيف أكثر النفوس، فهي لا تدرك كيف يمكن أن تحب الصليب وتتقبل الإذلال والاحـ ـتقار، لأنها تجهل سر المحبة المقدسة التي لا يمكن أن يوجد بدونها نسيان حقيقي للذات بل أنانية دنيئة وشهوة وكبرياء.

أما بالمحبة فيعرف الفكر، مهما كان ضالاً، أن يجد سبيله، والقلب، مهما كان سيسترجع نبله. المحبة المقدسـ ـة وحدها تنظم العواطف فتتدارك انحرافاتها وتقصى عنها الفوضى. فتبدل الأنانية بالعطاء، والكبرياء بالتواضع، والسعى الشهواني وراء اللذات والمجد الباطل بالإماتة ونكران الذات.

ومهمـ ـا انحـ ـدر الإنسان وتمادى في الخطيئة يظل محتفظًا بأثر من جماله القديم. إنه طموح يسعى باندفاع وراء أمجاد باطلة وكنوز زائلة: ألم يخلق ليحرز كرامة لا حد لها ويملك خيرات لا تحصى؟ إنه يحب التمـ ـتع ويلاحـ ـق لذاته بعناد شديد، أليس له الحق بلذائذ لا نهاية لها وسعادة لا يمازجها كدر؟ إنه يتهرب من الـ ـتعب ويمقت الألم ويكره العمل: كم يخلق لراحة ولسعادة لا توصف؟ انه يخشى الخضوع ويمقت العبودية ويثور ضد القوة: ذلك لن دمًا ملوكيًا يجرى في عروقه، فهو ابن الله ومخلوق على صورته ومؤهل للملك.

أعـ ـد المحـ ـبة إلى هذا الإنسان تحوله إلى بطل وقديس. فالمحبة هي المغناطيس الذي لا يقاوم الذي يجـ ـذب إلـ ـيه كـ ـل قـ ـوى النفس المبعثرة، فإذا الطموح والرغبة في الكرامة يتحولان بفعلها القوى إلى غيرة مضطرمة على مجد الله، والسعى وراء اللذة يتحول إلى تعطش شديد لارضاء الرب يسوع.

يا لقوة المحبة! إنها كجيش اصطف للقتال.

إن قـ ـوة القائد تأتي من الحماسة التي يبثها في جنوده. فالجيش يتألف، في الأساس، من عناصر غير متجانسة لا يجمع بينها سوى اللباس والعزم والشوق إلى القتال. ومتى كان على رأسهم قائد محبوب قادر على تنظيمهم فهو يجعل منهم جيشًا مرهوبًا، إذ يجمع حوله كل العناصر المتفرقة فتتبنى مخطط القائد عقول ألوف المحاربين وترضخ أرادتهم لأوامره حتى أنهم، إرضاءه له، يقاتلون حتى الموت.

وكـ ـذا النفس التي تخوض معركة القداسة، عليها أن تستوحى هذا المثل. ففيها تجيش نزوات جامحة تشـ ـكل ذوى رهيـ ـبة إن لـ ـم يسيطر عليها القلب انقلبت عليه. والسبيل إلى هذه السيطرة يكون بإعطائها قائدًا محبوبًا يخضعها له ويضبطها وينسقها وهذا القائد هو يسوع المسيح.

يـ ا يسوع اجعل عرشك في قلبي لتأتى وتنحني أمامك كل قواي التي شغفت بك وارتض بان تتحول إلى طاقات للخير مرهوبة لدى الجحيم. اجل يا سيدي، فليس لي أن أهدم طبيعتي بل أن أتنازل لك عنها لتنفذ إليها محبتك وتنقيها. فالطريقة المثلى لكيما أنسى ذاتي هي أن احبك وان أشغل فكرى كليا بهذه المحبة. فاملأ يـ ا رب جوانب نفسي ولا تدع لي فيها مكانًا شاغرًا كيما أرجع إلى فلك قلبك الإلهي كما رجعت حمامة نوح بعد أن عجزت عن إيجاد مأوى لذاتها خارج الفلك.

المقالة السادسة

كلما زادت النفس في نسيان ذاتها، زاد اعتناء الله بها

لـ يس على الأرض أعذب من محبة تامة النقاء متحررة من كل أنانية. غير أن هذه المحبة لا يمكن أن توجد إلا بين روحين لم تشوه الخطيئة صفاءهما ونقاوتهما. والنفس تمتلئ حزنًا لدى تفكيرها في أن صداقة جمـ يلة كهذه لا توجد على الأرض. ومع ذلك فالقلب البشرى يحلم بمثل هذه المحبة ويتوق إليها ولا تخور له عزيمة في السعي وراءها.

يـ ا يسـ وع إن قلبـ ي يفـ يض غبطة. فهذه الحبة التي طالما حلمنا بها هي حقيقة قائمة يعرفها قلبك وخبرتها ربوات من النفوس النقية.

ومم ا يزيد في بهجة هذه الصداقة أنها، في جوهرها محبة متبادلة، لأن الصديق لا يحيا في ذاته بل في صديقه، مفكرًا فقط في ما يرضى الصديق. وتتكوّن هذه المحبة المجردة في النفس على درجات وينصرف اهتمام يسوع إلى تقويتها وتنقيتها من كل محبة للذات.

لكن هذه المحبة كاملة منذ ابتدائها من جهة يسوع فهو يعطى ذاته بكاملها وبلا تحفظ حالما تستسلم له الـ نفس. ولا يكتفـ ي، بهذا بل يواصل سهره عليها فيتيم عناية محسوسة بجانب كل ضعيف وعاجز على هذه الأرض. وقد دود إلى كنيسته المقدسة بان تعالج مشاكل المجتمع فتداوى كل مرض، وتبدد كل جهل وتقوّم كل اعوجاج.

وكل نفس تهم يسوع بمفردها بقدر ما يهمه العالم كله مجتمعًا فهل يقال: ليس هناك من يسهر بجانب النفس الضعيفة التي لا سند لها؟ كلا أيها المعلم الصالح لن يكون ذلك، فإن حنوك لا يطيق هذا الافتراض.

ولكـ ن ما عسانا أن نقول إذا كانت تلك النفس فقيرة عن اختيار ورضى وإذا دفعها جنون مقدس سام فتـ نازلت بين يديك عن كل ممتلكاتها، واحتفظت فقط بشاغل محبتها لك، وماذا نقول على الأخص، يا يسوع، إذا قامت النفس بهذا التخلي الشامل عن كل عون مخلوق، بدعوة منك وانقيادًا لرغبتك وامتثالاً لأمرك؟ انك يا يسـ وع عندما تعظم محبتك نحو خليقتك بهذا السخاء لا تلزم قلبها فقط بل شرفها أيضًا. فإنك إذ تأسرها ببهاء صليبك تنزع منها كل ما تملك، أفليس من العدل أن تصبح أنت وحدك لها كل شيء.

أيـ تها النفس العزيزة، أيًا كانت القمة التي تسكنينها، فأنت بعيدة عن أدراك حنان يسوع الذي يعطيك قلـ به إذ يأخـ ذ قلبك. إنك بالرغم من صداقتك للمعلم الإلهي لا تزالين تعيشين وراء حجاب الأسرار تحيط بك ظلال الإيمان. ولسوف يكشف لك يسوع في ملكوته السماوي الذي لا انقضاء له ما كنت له على هذه الأرض

وما ستكونين له إلى الأبد. فإذا سمعت اليوم صوته طالبًا منك أن تنسى ذاتك لتكوني له إلى الأبد فلا تترددي ولا تحاولي خرق حرمة السر، بل قولي ببساطة مع الأم الإلهية: فليكن لي حسب قولك.

المقالة السابعة
كلما زادت النفس في نسيان ذاتها زاد تفكير الله أيها

كلما تقدمت النفس في الكمال، زادت حياتها الروحية ببساطة وهي تتلخص في النهاية في هذا الكلمات التي قالها يسوع لإحدى خادماته "فكرى بي فأفكر بك". وهذا يعنى: أفكر بكرامتك، بصحتك، بخيراتك الدنيوية، أفكر بخلاصك، بكمالك، بقداستك. ويسوع الذي يعرف كل شيء لا ينسى شيئًا. فعندما يطلب من النفس تضحية عظيمة مثل النسيان التام للذات فإنه يأخذ على نفسه تدارك كل المتاعب التي قد تنتج عنها بشريًا. فما على النفس إلا أن تطيع وان تمتنع عن تفحص المستقبل.

كانت أرمله "صرفه" في فقر مدقع يوم قابلت النبي ايليا. ولم يبق لديها سوى حفنة من الدقيق وقليل من الزيت تسد به الرمق مع ابنها ولا مفر من الموت جوعًا. ومع ذلك، عندما سألها ذلك الغريب طعامًا أعطته أخر قوت عندها. كان ذلك جنونًا بعرف البشر، إلا أنه حكمة أمام الله، وكان مبعث العجيبة.

والنفس البسيطة حقًا تسلك على هذا النحو مع الله. فهي لا تفكر إلا بالواجبات التي تفرضها عليها حالتها الحاضرة. أنها لا تعرف التحسب والمداورة والمخاتلة لأن الله يتعهدها والمكر والكذب يعجزان عن الإضرار بها. وقد يظن المخادع أحيانًا بأن النفس البسيطة واقعة حتمًا في حباله ولكن سرعان ما يخيب ظنه إذ يفتضح أمره بحادث غير منتظر أو بواسطة كلمة أو إشارة عفوية.

قال الرب لتلاميذه: عندما تمثلون أمام عظماء هذا العالم لا تهتموا بما ستقولونه دفاعًا عن أنفسكم. فالروح القدس نفسه يضع في أفواهكم ما يجب أن تقولوه. ولو أن الرسل قدروا عواقب أعمالهم الجريئة لما قاموا بالبشارة. لكنهم تركوا الروح القدس يقودهم حيث يشاء فأتموا البشارة على كمل وجه.

إن حكمة يسوع الإلهية لا تكتفي بالتفكير في أمور النفس البسيطة، كل تتدارك أيضًا الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها بسبب جهلها: وعدم تبصرها. لا يوجد إنسان، مهما كان ذكيًا وفطينًا، لا يتعثر في خطاه. فهذا التعثر يكون موضوع أحزان وذل عند عامة البشر وربما تعرضوا بسببه للهزء والشماتة. لكن مقاصد الله تشاء أن يكون هذا وسيلة لاتضاعهم وتقويم اعوجاجهم والحد من صلفهم.

وأما مع النفس البسيطة فتصرف الله يختلف عن هذا تمامًا إذ يسمح ببعض التعثر– وفي حياة كل قديس أمثلة على ذلك– إلا أن هذا التعثر يبقى عالم المفعول بل كثيرًا ما يكون للخير والتقدم.

والنفس لا تخسر مطلقًا إذ تدع الله يفكر لأجلها. فالقديس بطرس لما أدرك أن الشبح الذي كان يمشى على مياه بحيرة طبريا، فأخافه، كان يسوع، نسى نفسه قائلاً: "يا معلم إن كنت أنت هو فمرني أن أتى إليك

على المياه"[30]. إن بطرس بطبيعته العفوية لم يضع وقتًا في التفكير بل بادر ومشى فريق المياه، إلا انه لما رأى فجأة الأمواج الطاغية تهدده لم يعد يفكر بالمعلم القدير بل فكر بنفسه وبضعفه فشك وبدأ يغرق. ولكن لحسنا الحظ كان يسوع هناك ليتدارك كل خطر.

ومما يلفت النظر في الإنجيل المقدس أن يسوع يقف دائمًا مدافعًا عن الضعفاء والمفترى عليهم. ولو كانوا من الخطاة وما أن يبدى الشخص نحوه بعض الثقة حتى يشعر بأنه ملزم بالدفاع عنه.

فإنه وقف ضد تلاميذ. إلى جانب الأمهات اللواتي احتشدن حوله مع أولادهن. ودافع تجاه الحاسدين عن المهتدى الجديد زكا الذي صعد إلى الجميزة ليراه عند مروره، مع كون هذا العمل يعرضه للسخرية، حمى المرأة الزانية وأخجل رياء الذين شكوها وصرفها تائبة مؤمنة، ومانع في صرف الجموع التي تبعته إلى القفار جائعة، ودافع عن رسله الذين أخذهم الجوع فقطفوا السنابل في الحقول يوم السبت، وبسط حمايته على مريم المجدلية ودفع عنها شر مضطهديها لأنها أحبت كثيرًا فاستحقت أن يغفر لها كثيرًا.

كانت مريم من أعرق عائلات مجدًا واشتهرت بفجورها لكنها، دون أن تخبر أحدًا بالتحول الذي حصل لها، جثت عند قدميّ يسوع لتقدم اتضاعًا حسبه البعض هوسًا وتطرفًا. فقد دخلت بيتًا غريبًا عنها أثارت فيه الاضطراب بين المدعوين وسببت خجلاً لرب البيت.

أيتها المجدلية! إنك لم تهتمي بما أثرت وسببت من مشاكل عندما كان يسوع حاضرًا يتوقع وقوعك على قدميه لأولى مرة! فقد تكفل المعلم بأن يجيب عنك.

ولم يتوان يسوع عن القيام بذلك، فدافع عن المجدلية تجاه يهوذا الذي اتهمها بالإسراف. أنه فعل أكثر من هذا فقد ارتضى أن يسجل تبريرها في الكتاب المقدس حتى يخير بما فعلته حيثما يكرز ببشارة الإنجيل.

وأنت أيضًا، أيتها النفس الأمينة، استسلمي ليسوع وانسي ذاتك، فيفكر يسوع لأجلك. ولن يقال أبدًا إن ثمة كائنًا ضعيفًا أو محتاجًا لجأ إلى حنانه فرجع خائبًا: "من يقبل إليّ لا أخرجه خارجا"[31].

---

[30] مت 28:14.

[31] يو 37:6.

الفصل الثالث

حياة التفاني

المقالة الأولى

ما هو التفاني؟

بذل الذات لله يعنى أن ننساها حتى لا نعود نفكر إلا بالذي استسلمنا له. وعندئذ يستولي الحب الإلهي على النفس وينصب فيها عرشه ويطرد منها الأفكار الباطلة واحدًا تلو الأخر. ومتى خضعت النفس لسلطانه، تنازلت عن منافعها الخاصة وعن تدبير شؤونها الشخصية وعن الاعتناء بمستقبلها، لتتكرس بكاملها لخدمة الله تاركة له عبء الاهتمام بكل شيء.

بـ ذل الـ ذات لله يعنى التفاني في طاعته والتفرغ لخدمة الأهداف النبيلة والمقدسة، والتجند في جيش يسوع والعمل على توسيع ملكه بكل الرسائل الممكنة.

أن نحب، وان ننسى ذاتنا، وأن نتفانى، ذلك هو بذل لله، ذلك هو الكمال.

إن أفضـ ـل معنـ ـى يمكـ ـن أن يعطى لحياة الإنسان الضعيف. الفاني، هو التفاني في سبيل الآخرين ونسيان ذاته كيما يزداد محبة ليسوع.

التفانـ ـي يعنى تسلهم كل حياتنا ليسوع، وبذل كل قوى جسدنا له، وكل حماسة قلبنا وكل عزم أرادتنا وكل نتاج فكرنا.

التفاني يعني أن نسلم ليسوع كل سلطان على كياننا، سائلهن إياه أن يتصرف يه عندما يشاء وبحسب رضاه، لمجد اسمه مهما اقتضى ذلك من جهد أو ألم، من نشاط أو راحة، من تعب أو إماتة أو صوم.

التفانـ ـي يعنـ ـي أن نكـ ـون تحت تصرف المعلم الإلهي إن دعانا: سواء في خلوة الدير أم في عزلة الصـ ـحراء، لنـ ـرفع إلى الله يدين متضرعين، في الساحات العامة المزدحمة لنذكر العالم الطائش كما تقتضيه الحـ ـياة مـ ـن رصـ ـانة والتزام، أم في البوادي الساكنة لنحمل الإنجيل إلى النفوس المسكينة الجالسة في ظلال المـ ـوت، في المشغل البسيط أم في المعمل الصاخب أم في الكوخ الحقير لنكسب بعرق جبيننا كفاف يومنا من الخبز لأسرتنا وكيما نبني العالم بجهدنا الذي لا يكل وحياتنا المستقيمة التي لا لوم فيها.

التفانـ ـي يعنـ ـى بذل شبابنا وصحتنا ووقتنا ومالنا لاعانة البؤساء وتعليم الجهال والاعتناء بالمرضى ومساعدة الفقراء وهداية الضالين وإغاثة اليتامى ومداواة الآلام البشرية التي لا تحصى.

التفانـ ـي يعنى نشر سلطان الحق والخير والجمال في العالم، والعمل على إقامة علاقات محبة ووئام بين الأمم، والسعي لتقريب قلوب الشعوب في سبيل اتحادها كلها بالمسيح يسوع، وتعميم قيم العدالة والحق في المجتمع ومحاربة الضلال بأي شكل تقنع.

التفاني يعنى الاهتمام بأوضاع الطبقات الفقيرة الكادحة، والإسهام في تخفيف فقرهم المادي والفكري والخلقي، والاشتراك في رفع مستوى الطبقة العاملة، والعمل على إخماد الأحقاد التي تفرق بين الفقراء والأغنياء، بين العامل ورب العمل.

التفاني يعنى، أخيرًا، أن نكون في جهاد دائم، بحسب دعوة كل منا ووقته ووسائله، ضد الضلال والإثم لكيما نرفع راية الخير في كل بقعة من هذه الأرض ونجمع قلوب الناس برباط المحبة فيخضعوا كلهم لنير الحق ويسجدوا للمعلم الأوحد، ليسوع ملك الدهور.

ما أوسع مجال العمل وما أرفع هذا المثال للقلب الذي شغف بحب إلهه.

المقالة الثانية

الله يوجد النفي في تفانيها

إن تعدد أعمال التفاني يخبئ فخًا لكثير من النفوس السمحة. فهي معرضة لتوزيع تفكيرها ووقتها ونشاطها على ألوف الأعمال المختلفة. أما النفس البسيطة المستسلمة لمحبة يسوع فتستطيع تجنب هنا الفخ بسهولة.

إن لها في كل لحظة واجبًا خاصًا تتممه بدقة وبلا عجلة أو تباطؤ، لأنها التزمت قضية ولحدة لا بديل يغنى عنها وهي التفاني في سبيل الله. وإصرارها على حياة الأمانة المستمرة هذه، هو من النوع الهادئ الصبور لأنه أفضل طريقة تبرهن فيها لله عن محبتها. كل هذا في الخفاء والانسحاق حتى أنه لا يمكن لأحد أن يرى من مظاهرها أنها تخبئ تحت ستار هذه الدقة والثبات محبة عظيمة لإلهها.

فما اعظم خطأ المرء يا يسوع عندما يظن أن التفاني في سبيلك يتطلب أعمالاً باهرة ووظائف رفيعة ومناسبات خارقة ومؤهلات خاصة وبيئة ملائمة! إن الحياة المتواضعة المكرسة كلها للواجب الموضوع أمامنا هي الحياة الحقيقية، هو التفاني في أقوى معانيه واشدها واقعية.

أه ما أقل تبصر أولئك الذين يترفعون عن الوظائف المتواضعة والاهتمامات البسيطة والواجبات اليومية الحقيرة التي تمتلئ بها الحياة! إنهم يريدون العظمة والشهوة والنفوذ ويعجبون بالرجال المقتدرين الذين يثيرون حماسة الجموع ببلاغتهم ويلجون مجالس عظماء هنا العالم.

أما أنا أيها للعلم الصالح، فإني أعجب إعجابًا أعظم بتلك النفوس المجاهدة التي تقضى حياتها في عمل خفي متواضع ومهما صادفها من صعوبات وعقوق فهي لا تني، ولا تنفك أمينة مخلصة وأن لم يكن حولها من ينظر إليها نظرة عطف واستحسان.

إن الواجهات اليومية، والأعمال التي تفرضها الظروف الحاضرة هي مدار نشاط النفس المكرسة لله. فإن كانت أمينة يسمر الله أحياناً بتوسيع مجال عملها ويوحي لها بأشغال أخرى أعظم أهمية وأوسع مدى.

لذا كان واجب النفس أن تنتظر بهدوء نداء الله. فإذا دعاها منذ مطلع النهار لتذهب وتعمل في كرمه، تكون مستعدة وتطيع بفرح. وإذا انتظر سيد الكرم حتى الساعة الحادية عشرة ليدعوها تكون أيضًا مسرورة،

ف ذلك دل يل عل ى أنه الله لم يكن بحاجة إلى خدماتها قبل هذا الوقت. وإن لم يدعها البتة فهذه أيضًا مشيئته والدلالة الأكيدة على انه يريد أن يدع لها الوقت للتأمل. انه السيد وله وحده أن يحدد ما يلائم مجده.

إن روح الله يهـ ب حـ يث يشاء وعلى المرء أن يكون سريع الاستجابة لهمساته حذرًا من أن يضع أرادتـ ـه مكان إرادة الله فيفرض خدماته عليه تعالى. كلنا يعرف أن القديس منصور دى بول استطاع أن يحقق مشـ ـاريع كثيـ ـرة لتخفـ يف وطـ ـأة البؤس عن التعساء ولتعليم الأولاد وتبشير النفوس المهملة، وتقدم الؤمنين الروحـ ـي، ومـ ـع ذلك يقول القديس: إنني انتظر دومًا ا قبل البدء بأي عمل، أن تخطو العناية الإلهية الخطوة الأولى. فليس هناك شيء أهم من هذا الخضوع التام للمشيئة الإلهية.

ومتـ ـى أعلن الله مشيئته بوضوح فإن النفس لا تعود تتردد بل تستسلم بفرح وتبذل ذاتها بلا حساب، كمـ ـا أنهـ ـا تضـ حي له، عند الحاجة، بمحبتها للعزلة وللحياة المتواضعة المستترة ولا تطمع في شيء: لا في العظمة ولا في الشهرة ولا في النفوذ، كما أنها لا تخشى شيئًا ما دام الله قد عبر عن رضاه.

أنها لا تقتدي بتلك النفوس الجبانة المتخوفة التي تتعلل بتواضع كاذب لتترك الفرصة التي يقدمها الله لعمـ ـل الخير تمر درن أن تستفيد منها. كما أنها لا تصر على رفض الوظائف التي تضعها أمامها طاعتها لله ولو كانت لها فيها كرامة ورفعة، بحجة أنها ليست بارعة فيها أو أنها تفضل الحياة المستترة المتواضعة. ولا تـ ـرفض، لخـ ـوفها مـ ـن أن تفقد بساطتها وحدودها أن تتعامل مع أهل العالم وعظماء هذا الدهر وأقويائه وان تشـ ـتهر، عـ ـندما تـ ـتطلب الظروف ذلك، لأنها تعرف جيدًا أن التراجع في هذه الحال يعنى خيانة قضية الله والسعي وراء الراحة الذاتية على حساب مصالح السيد له المجد.

المقالة الثالثة

لا محبة بدون تفان

لمـ ـا أتـ ـى يسوع إلى هذا العالم لم يعلم شيئًا أحب من التفاني. وتد نبتت هذه الزهرة الصغيرة– إن صـ ـحت تسميتهما بهذا الاسم– على الجلجلة عند قدم الصليب وفي الأرض التي خصبها دم يسوع. ومنذ ذلك الحـ ـين لم تختف هذه الزهرة عن وجه الأرض لأن هناك أصدقاء يتعهدونها كعناية. إنهم يعرفون التربة التي تحـ ـبها والعصـ ـارة التي تتغذى بها. يعرفون أنها تهرب من مناخ الأنانية الجليدي وترتاح إلى مناطق المحبة الإلهية الحارة، فمكانها الحقيقي المفضل هو حيث تغمرها محبة يسوع.

وأنـ ـت أيـ ـتها النفوس المتحمسة هل تعرفين هذه الزهرة، هل أعجبت بجمالها وتنشقت عطرها؟ أفلا تريدين أن تدخلي السرور إلى قلب يسوع فتقبليها في قلبك وتتعهديها فيه بعنايتك؟

المحبة والتفاني زهرتان لساق واحدة وقد نقلهما يسوع من الحديقة السماوية إلى أرضنا القاحلة فنمتا فـ ـيها وتفـ ـرعتا وتكاثرتا ودخلتا حدائق العظماء وارض الفقراء الوضيعة ومنها تفرعت في كل مكان فضائل رائعـ ـة: مـ ـن نكران ذات وتواضع وتضحية ووداعة وتسامح، وامتلأت الأرض، المقفرة سابقًا، بالمستشفيات ومأوى العجزة وملاجئ الأطفال والمدارس والملاجئ العامة. وكثر فيها صانعو الخير.

لـ يس مـ ن تفان بلا محبة، كما أنه ليس من محبة بلا تفان. يا يسوع ما احسن أن تبعث محبتك فينا فنعرف التفاني الحق!

المقالة الرابعة
الأنانية تقود العالم

كـ ان البشـ ر يا يسوع يحبونك محبة إلهية ولا تزال قلوب كثيرة نقية تحبك وتتفانى في سبيلك حتى الممات.

ومـ ع ذلك فقلبي ينبض بالأسى لأن عدد هذه النفوس الملتهبة محبة يقل يومًا بعد يوم إذ أن الأنانية تعود إلى قيادة العالم ناشرة سمومها في المجتمع بأسره. أنها تنفذ الآن إلى الحياة العائلية وتحاول التسرب إلى الكنيسة نفسها. فهل يجد يسوع محبة في العالم متى عاد إلى هذه لأرضى؟ وإنك أينما اتجهت ترى سعيًا وراء الملذات وطعمًا وبذخًا مفرطًا واضطهادًا للضعفاء وازدراه بالتعساء ونفورًا من الفقراء.

آه يا زهرة التفاتي الصغيرة التي نقلها يسوع إلينا من السماء لتجتذب بنى البشر بعطرها! إنني أراك مزدراة ومفترى عليك ومضطهدة. فكيف تستطيعين بعد أن تعيشي في جو مشبع بالأنانية؟ اطلبي إلى البستاني الإلهـ ي أن يـ ردك إلـ ى الجنائن السماوية لأن الشيطان سكن هنا والظلام يتكاثف حولنا والبرد يزداد قرصًا والوثنية الشنيعة تعود كشبح بشع مهددة بأن تلفنا ككفن عظيم.

ترأف بنا يا يسوع: "أقم معنا فإن المساء مقبل"[32] وقد مال النهار، والليل القائم يفزعنا بأشباحه، فابق معنا.

لا تنظر أيها السيد الرحيم إلى عقوقنا المتكرر. بل انظر إلى هذا العدد الضئيل من النفوس المستقيمة التـ ي هـ ي لـ ك بيننا وأشفق علينا. أنها قد بذلت لمحبتك بلا تحفظ، وهي تتبعك إلى أي مكان في الحياة وفي الممـ ات. فهـ ل تـ رذلها أيهـ ا السيد؟ لا. يا يسوع! ولو لم تبق سوى نفس واحدة محبة فأنت لن تحجب عنا رحمتك.

أما أنا يارب فقد قررت منذ الآن لن استسلم تمامًا لمحبتك وأكون متفانيًا في طاعتك. وسأتيك بقلوب أخرى كثيرة أنقي وأكثر حبًا لك لنؤلف جوقًا يرفع إليك في كل حين الشكر والتسبيح.

المقالة الخامسة
التفاني بالصلاة

كل شيء يؤثر في النفس التي استسلمت لله ويسهم في جعل حياتها أكثر خصبًا، إن عملها أو صلاتها

[32] لو 24: 29.

أو مـ ثالها. كل شيء فيها يحمل الطابع الإلهي، وتفيض القداسة منها من كل جانب وتنسكب على النفوس التي تحيط بها.

إن صـ لاة بسـ يطة مـ ن نفـ س نقـ ية ورعة يستجاب لها أكثر من تضحيات آلاف النفوس العادية وابـ تهالاتهم ذلـ ك "لأن طلـ بة الـ بار تقتدر كثيرًا في فعلها"[33]، وقال يسوع لإحدى القديسات: "أصدقاؤك هم أصدقائي، واحب من تحبين فاطلبي منى أن أنفعهم".

ويسـ ر الله أحيانًا بأن يقدم لأمة بكاملها مساعدات خاصة، ويضع أمامها مجالات واسعة لترجع إليه تائـ بة. لذلك تلاحظ، حينًا بعد آخر، في هذا البلد أو ذاك أن الروح القدس يعمل بقوة وأن هناك تيارات اهتداء إلـ ى الحقيقة لا تفسر وتغييرات عميقة الجذور وتحولات فجائية في الرأي العام نحو الكنيسة والدين، دون أن يظهـ ر أي مبرر خارجي لأي منها. بل، على العكس، يكون كل شيء منافيًا لتقديراتنا. لكن يوجد في بعض زوايـ ا العـ الم، نفوس نقية استسلمت بكاملها لمحبة يسوع تصلى لأجل الإنسانية جمعاء أو لأجل إحدى الأمم على وجه التخصيص.

يا لشقاء العالم لو انه خلا من القديسين، إذ لا تعود هنا قوة قادرة على إيقاف ساعد العدل الإلهي من إذ زال العقـ وبة بهـ ذا العالم الطائش. أما القلب البسيط الطاهر فهو وحده قادر بصلاته أن يوقف غضب الله ويستنزل مراحمه.

فـ ي القديم كاد الرب يبيد الشعب العبراني أكثر من عشرين مرة لو لم يكن موسى يتشفع فيه. وكان الله يقول لعبده: دعني اعمل ولا تزعجني، وسأجعل رئيسًا لأمة أقوى من هذه لكن موسى كان يصلى إلى أن صارت الغلبة للرحمة.

وأذ ـ ت أيتها النفوس العزيزة المستسلمة بكاملها لمحبة يسوع، صلى لأجلنا نحن الخطاة، صلى لأجل الأمـ م غير المؤمنة، صلى لأجل الشعوب المسيحية التي كفرت، صلى لأجل وحدة الكنيسة صلى لأجل العالم وألحـ ي علـ ى الله بصـ لاتك فهو لا يرفض لك طلبًا وليس من تأثير في شؤون البشرية يعادل تأثيرك. بهذا تخدمين قضية الخير الأوحد.

إن النفس أن تتمسك بإيثار كلى بخدمة الصلاة هذه وان تجعل منها رسالتها ودعوتها في هذه الحياة. فالواقـ ع البشـ رى يدل على أن الجميع لا يستطيعون أن يعظوا ويعلموا ويتركوا عيالهم ووطنهم للسعي وراء الـ نفوس الضالة وهدايتها، لكن الجميع يستطيعون الصلاة. هناك من كرسوا حياتهم لرسالة التضرع هذه دون سـ واها ولجـ أوا إلـ ى الأديرة ليستطيعوا القيام بذلك على أكمل وجه. وبما أن الجميع لا يستطيعون الاقتداء بـ بطولة هؤلاء، فإن بوسعهم إن أحبوا ذلك وأرادوه، أن يكرسوا حياتهم للصلاة لأجل الخطاة وان يقدموا لله، فـ ي سـ بيل ذلـ ك، أعمالهم وأتعابهم ومشاكلهم، وهكذا تتحول حياتهم كلها إلى الصلاة وتنطق كل جوارحهم بالابتهال.

وهـ ناك أوقـ ات يختارها الرب ليدعو النفس كي تزداد دنًا من قلبه ويسكب عليها فيض حنانه. إنها لحظـ ات عذبة تعرفها كل نفس نقية. وكلما ازداد القلب بذلاً ونقاء سر الرب بأن يكثر تلك اللحظات ويطيلها. وعلى النفس أن تستفيد من هذه الأوقات السعيدة.

---

[33] يع 5: 16.

فيا أيتها النفس النقية أنسي ذاتك ومصالحك الخاصة عندما تكونين بالقرب من يسوع– لأنها في أمان في قلب المعلم– ولا تفكري إلا بالعالم، بالنفوس المسكينة التي تهلك فيه، بالخطايا العديدة التي ترتكب فيه، واسألي، الفادي الإلهي أن يرأف بشعبه. كوني لجوجة في صلاتك إلى أن يستجيب لك. كوني متفانية لأجل المسيحية الخاطئة فتخلصي، كهيوديت، المدينة المقدسة من الأعداء الذين يحاصرونها.

المقالة السادسة

التفاني بالقدوة

يجب أن تتفانى النفس في الصلاة، لأن للصلاة تأثيرًا كبيرًا على الله. كما يجب أن ينعكس هذا التفاني بالقدوة التي تقدمها للآخرين، لأن للقدوة تأثيرًا كبيرًا على القلب البشرى.

لا شيء يستطيع أن يدفع النفوس إلى القداسة كما تدفعها قدرة حياة مثابرة على الفضيلة. فالصديق والرجل الأمين لواجباته هما عظة دائمة وحافز للقلوب النقية وتبكيت للمتهاون وتأنيب ودينونة للخاطئ.

إن هذه الحياة المكرسة لتتميم الواجب اليومي دون سواه، مهما كان خفيًا أو متعبًا، وهذه الأمانة في القيام بأقل الفروض من غير تراخ، وهذا الازدراء العجيب بكل منفعة خاصة وبكل وجهة نظر بشرية محضة... كل هذه النواحي المحببة للفضيلة الحية البناءة الفاعلة فينا تجذب وتستهوى أكثر الناس لا مبالاة. وما يؤثر فيهم بالأكثر هو البشاشة الدائمة والاتزان في الطبع والوداعة في العمل والاستقامة التي تتحلى بها تلك النفوس التي أسلمت ذاتها لله.

وقد كان ليسوع تأثير عظيم على الذين رافقوه، وكان يأسر بصلاحه وتواضعه كل الذين عرفوه. لقد كان يسوع محسناً إلى الجميع على الدوام حتى لقد ظهرت رسالته وكأنها محصورة في عمل الخير: بيد أن هذا الإحسان الذي لا يكل كان يكتسب الخطاة، فيهدى زكا وبصلح المجدلية ويعيد الزانية والسامرية إلى سواء السبيل. كما انه كان يجتذب إليه الأولاد والمرضى والأرامل والحزانى فيباركهم ويصرفهم معافين ومملوءين بالتعزية.

ما أحذقك أيتها المحبة! فأنت تعلمين أشياء لا يستطيع أي قلب طيب أن يصمد أمامها. إنك وديعة مراعية ضعف الإنسان، مملوءة رقة وتهذيبًا، تحترمين كل مخلص في رأيه وتنفنين إلى العقول المتمردة وتطردين منها كل تهور، وتلجين إلى القلوب المغلقة وتنقينها من الحقد والضغينة. كل شيء يخضع لسطوتك، حتى أن النفس التي تتملكينها تصبح مقربة إلى كل قلب، إذ لا يستطيع أحد أن يقاوم سلطان نفس لا تحيا إلا لتعمل الخير ولتخفف أثقال الآخرين وتجنبهم الملل والتعب.

نعم! من تراه يعارض نفسًا همها الوحيد أن تفرح الآخرين وان تتحمل الضيق والمكاره بلا تبجج وبكل بساطة كأنها أشياء تستحقها؟ من تراه لا يقبل أن يحب أمثال هذه النفوس، من لا يخضع لسطان فضيلتها ومن لا يجد في إرضائها بدوره؟

وهكذا، كلما بذلت النفس ذاتها وتناستها، اجتهد الجميع بان يعاملوها بالمثل وان يفتكروا بها. ليس الله وحده هو الذي يهتم بها، بل هناك أيضًا الخلائق التي تضحي النفس بذاتها لأجلهم. أنها، بعد أن تخلت عن كل

شـ ـيء، تجـ ـد كل شيء بوفرة أعظم وبصورة أثبت. وهذا هو التحقيق الأبدي لكلمة يسوع: "من أضاع نفسه يجـ ـدها"[34]. وهو لا يجد نفسه فقط بل يخلص أيضًا نفس قريبه. ولأنه تفانى، لأنه بذل حياته لأجل أخوته فهو يرى ذرية كبيرة. إن ذكر الأناني يمضى معه، أما ذكر الصديق الذي عاش للآخرين فيكون مباركًا.

المقالة السابعة
التفاني عن طريق الأمانة
في إتمام الواجبات

إن الوقـ ـوف موقف المتفرج إزاء الصراع القائم بين التفاني والأنانية غير مستطاع، لأن للنفس دورًا يجب أن تمثله، شاءت أم أبت، وقد قال يسوع: "من ليس معي فهو عليّ، ومن لا يجمع معي فهو يفرق"

إن مـ ـن لا يحـ ـارب في صفوف المسيح فهو جندي في جيش الشيطان. ومن لا يتخل عن كل شيء ليتفرغ لعمل الخير يزد عدد الأنانيين وأصدقاء الشر. فكل نفس مسؤولة عن نتيجة المعركة فتسهم أما في عقد لـ ـواء النصـ ـر للخيـ ـر وإمـ ـا في رفع راية الشر. وفي هذه المعركة، ليس القادة هم الذين يقومون دومًا بأهم الأعمال، فقد يعود الدور الفصل، في أكثر الأحيان، إلى جنود بسطاء، إلى أشد النفوس معرفة بالمحبة ونسيان لله والتفكيـ ـر فـ ـي مصـ ـالح الآخرين. لتلك هي النفوس التي تحرز أعظم الانتصارات لأن النفس المستسلمة بكاملها ليسوع هي أعدي أعداء الجحيم.

فكم من رجوع إلى الله تم على يد نفس بسيطة تقوم بواجب المحبة بتواضع قرب أسرة المرضى في المستشفيات! وما أعظم التأثير الذي تحدثه في أسرتها فتاة تقية و زوجة مخلصة، لو أم مهتمة بخير أولادها.

مـ ـن لا يذكر في هذا المجال متأثرًا قصة القديسة مونيكا التي هدت زوجها وحولت ابنها أغسطينوس الملحد الطائش إلى معلم للكنيسة وقديس. من لم يتأثر عند قراءة مذكرات سيدة معاصرة، هي اليزابيث ليسور E.leseur التـ ـي تفانـ ـت لـ ـتهدى إلـ ـى الإيمان أحد دعاة الإلحاد بعد أن تزوجها ليجرها إلى إلحاده؟ كم كان إخلاصها وتجردها عظيمين وكم ذرفت من الدموع! وكم بذلت خصوصًا من المحبة لتخلص نفس زوجها. لقد كانـ ـت تلـ ـك الزوجة المثالية على حق عندما قالت: "حسن أن يفكر الإنسان، وأحسن من ذلك أن يصلى، لكن المحـ ـبة هي كل شيء". أجل، المحبة هي كل شيء لأن فيها الصلاة والتفكير. المحبة هي كل شيء لأنها، كما رأيـ ـنا، نسيان النبات والتفاني، وما من كائن يصمد أمام التفاني. فهو السلاح الوحيد المنتصر دائمًا لأنه سلاح فائق للطبيعة ولا يحسن استعماله إلا القديسون.

ألا تتشـ ـوقين يـ ـا نفسي لتعيشي حياة التفاني هذه؟ ألا ترين أنه ليس هناك أجمل وأقدس من أن يعمل الإنسـ ـان دومًـ ـا علـ ـى أن ينسى ذاته وأن يكثر من الإحسان حوله وان يقابل الشر بالخير من غير أن يطلب اعترافًا بالجميل أو ينتظر تقديرًا؟

[34] مت 10: 39.

إن بـ ذل الـ ذات بـ دون تحفـ ظ ووضع كل إمكانيات المرء: قواه ووقته وقلبه وعقله تحت تصرف الآخـ رين لخدمـ تهم وتعـ زيتهم وهدايتهم سواء السبيل، هو هدف لا أسمى ولا يرفع منه. هنا تظهر البطولة والتضحية في أقوى معانيهما، هنا، عندما تذوب الذات على مهل في خدمة المصلوب كما تذوب الشمعة على المذبح.

أرى الرؤسـ اء مشـ غولين في حكم بلادهم، والسياسيين يحاولون تقرير مصير الأمم، أرى الشعوب تتـ نازع التفوق في العالم فينقض بعضها على بعض بجنون وحشي، أرى الناس يجوبون البر والبحر ليجمعوا الثروات، يفنون حياتهم في أعمال شاقة ليصلوا إلى مجد باطل. أما أنا يا يسوع فلا أريد إلا أن أحب وأتفاني، آمالـ ي تنحصر في النمو بالمحبة حتى أتوصل إلى بذل ذاتي أكثر فأكثر. صحيح إن طموحي لا حد له، لكنه يـ زدري بمجـ د العـ الم، فالمملكـ ة التي أريد أن أحكمها هي قلبي. أريد أن يكون توقاني كله إليك، ومطابقًا لرضاك. أنا لا أبتغي على هذه الأرض إلا أن احب وأساهم في بسط مملكة المحبة.

المقال الثامنة

الله يملأ بالخصب حياة النفس المستسلمة له

التفانـ ي الحقيقي هو أن يكون الإنسان بين يدي الله أداة طيعة فكلما أفرغت النفس ذاتها من كل غاية أنانية، كانت سهلة الاستخدام، ومرنة، ومن ثم جديرة بأن تهيئ مجد الله.

إن الجهـ ود التي يبذلها البشر في سبيل مجد الله ليست عادة تلك التي تلفت النظر. فملكوت الله، مع كونه في هذا العالم، ليس من هذا العالم: إنه روحي ولذا فهو خفي أما ما نظن أننا نرى منه حولنا فهو مجرد ظواهـ ر والأشـ خاص الـ ذين يحـ تلون فيه، ظاهرًا، مكانة مرموقة ويديرون شؤونه ويعضدون أو يحابون مصـ الحه، ليسوا إلا ظلالاً تروح وتجئ برهة على المسرح لتدع المكان لظلال أخرى. ولكن الستار لا يرفع أبـ دًا ويسـ تمر التمثيل دون أن يظهر الممثلون لنا. ومن هذا المسرح اللامحدود لا نرى، نحن المسجونين في أفقـ نا الضيق ولا تفاصيل ضئيلة. فكيف نتجاسر إذن، ونحن في هذا الوضع، أن نبحث في قيمة دور كل منا في هذه الحياة؟ فلله وحده أن يعرف ذلك وهو الذي يوجه الجهد البشرى كله إلى هداف واحد.

إذ نا نخطـ ئ إذ نظن أن حياتنا لا فائدة منها وأن أعمالنا عقيمة لأن النجاح لم يكلل جهودنا. فهناك عظمـ اء عديـ دون وقفوا ذاتهم لخدمة الخير إن في العالم أو في الدير، ومع ذلك باءت كل مشاريعهم ظاهريًا بالفشل. وبوسع كل واحد منا أن يذكر أسماء رجال دولة وسياسيين وأساقفة وكهنة قضوا كل حياتهم يحاربون بـ لا جـ دوى أفكـ ارًا سائدة ونفوذًا مسيطرة، ومخططات ضمن لها النجاح مسبقًا. فكان نصيبهم في كل هذا هزيمة دائمة وهدمًا كاملاً لآمالهم المشروعة.

ومـ ع ذلـ ك لم ينتصر أحد قط مثل هؤلاء الرجال الذين كانوا دائمًا مغلوبين. ولم يحصل أحد علي نجـ اح حقيقـ ي مـ ثل هؤلاء الأبطال المعيرين دائمًا، الذين طالما قهرهم العنف، ولم يخدم أحد قضية التمدن الحقيقي والإيمان مثل هؤلاء المغلوبين دائمًا. إن تفانيهم، العقيم في ظاهره، قد كان الثقل الذي أمال مع الزمن كفة الميزان إلى جهة العدالة المظلومة والحقيقة المسلوبة، والبراءة المضطهدة.

هكذا انتصرت تلك الشعوب التي سحقها طيلة قرون عتو ملوك طغاة. فإن الدموع والآلام والإصرار على تحدى النفي والاستشهاد، فاضت كلها كنهر طال ضبطه تحت الأرض، فاندك المعقل الذي كان يعتقد انه لا يتزعزع قد حطمت أساساته.

هكذا عاشت أيضًا تلك الشعوب التي طالما تحملت جور جيرانها الأقوياء، واضطهدت في وطنيتها وشعورها الديني، فسلخت وشردت وقضى عليها أن تئن عاجزة وتبكي مجدها التالد وحريتها السلبية.

هكذا تغلبت المسيحية على الاضطهاد الوثني وعلى قسوة السلطات المدنية وعلى رياء قسم من أبنائها أو هرطقتهم.

هكذا سينتصر يومًا المسيحيون المضطهدون في اعز معتقداتهم ومشاعرهم. فالتضحيات التي بذلت والدموع التي سكبت، وأعمال التفاني التي تكاثرت في سبيل قضيتهم المقدسة، مع كونها عقيمة في الظاهر، تتصاعد مرتفعة، أمام عرش الله، وتحدق به كجيش لا يغلب، ماذا بأولئك الذين كان يعتقد أنه قد كتب لهم الهزيمة الدائمة، قد أحرزوا النصر على الكفر وبعثوا الحياة الروحية.

هذه الأمور التي تبهر بوضوحها كل متفحص للوقائع التاريخية العظيمة تتحقق سريًا في حياة كل نفس، النفس التي تعتبر ذاتها غير نافعة وغير مؤهلة لجلائل الأعمال، هي التي قد يختارها السيد لتضع أسس أعماله البهية. وتلك التي تتأوه سرًا لعدم نفع حياتها قد تصبح سبب خلاص لألوف الخطاة.

لا ريب أن هذه النفوس المسكينة لا يكون نصيبها دائما أن تشاهد بفرح هذا النصر ولا هنا البعث. فقد تترك أرضنا هذه وهي تنوء بثقل اخفاقاتها وأحلامها المتبددة، لكن الله ساهر. وهو سيكافئ تضحياتها ويولى هذا البذار في أوانه ثمرًا يضاهي مئات أضعافه.

وقد حفظ التاريخ بعضًا من هذه الحوادث العجيبة إذ أننا نعرف كيف أن عمالاً فقراء وبنات جاهلات وراهبات مجهولات ورجالاً لا كفاءة لهم ولا نفوذ ولا مال، قد أنشأوا أو وسعوا نطاق أعمال عظيمة تعود على الكنيسة والإنسانية بالخير الجزيل.

وإلى جانب هذه الوقائع القليلة التي أراد الله أن يطلعنا عليها، وقائع كثيرة بقى محتفظًا بسرها حتى تجاه النفس التي تكون قامت فأيها بدور البطولة.

كل نفس مستسلمة للعناية الإلهية تصبح مركز تأثير تنتشر أشعته وتمتد إلى ما لا حد له. ولذا فإن صلاة القلب النقي أو مثله أو عمله تكون إشعاع نعمة حوله يمتد تأثيره إلى عدد متزايد من النفوس ويتسع هذا التأثير كلما ابتعد عن المحرق الذي ينبعث منه.

أما علاقات النفوس في ما بينها وتفاعلها المتبادل، والتأثير الذي تمارسه كل واحدة على الأخرى لناحية الخير أو الشر، فهذا كله نكاد نجهله تمامًا. لكننا نعرف نقط وعلى وجه العموم، أن الله يقدس الواحدة بالأخرى وإذ به يمنح النفوس الضعيفة أو الخاطئة نورًا وقوة بصلوات النفوس العزيزة عليها، غير أن هذه التأثيرات الخفية وهذا التضامن تبقى مغلفة بالظلام. إنه مما يبهج النفس أن يعرف المرء خفايا تاريخ حياة ولو بالنسبة لنفس واحدة وان يتبين مقدار طاعتها للمشيئة الإلهية وخصب بذل ذاتها لله، وان يكتشف ما لها من تأثير فائق للطبيعة في كل نفس تتصل بها، وان يتابع تطور هذا التأثير وتشعباته التي تكاد لا تحد!

ولكـ ن ماذا ينفع كل هذا؟ انه لا يؤول إلا إلى إثارة فضول باطل. فحسبي يا يسوع، أن اعرف إنني لك بكاملي، بينما تهتم أنت بجعل حياتي خصبة، فتثمر لمجد اسمك القدوس.

الخاتمة

السيدة العذراء مثال حياة الاستلام لله

إن سر قداسة جميع الأبرار كان في بذل ذواتهم لله من كل قلوبهم، وفي إتمام مشيئته والاستسلام لعنايته. أما النفس التي تفتش عن غير ذلك أو عما يجاوزه فتقع في الخطأ والضلال.

وقد سلك كل قديسى العهدين القديم والجديد هذه الطريق التي تؤدى وحدها إلي القداسة التي لا تعنى بالضرورة اجتراح المعجزات والعجائب الخارقة.

وليس بين الخلائق الطاهرة من يعادل في قداسته والدة الإله. ومع ذلك فقد كانت حياتها بسيطة جدًا: لقد مرت بكل احول النساء اللواتي من طبقتها. فعاشت وترعرعت وتعلمت كالأولاد الذين من عمرها. كانت ربة بيت وأمًا تتمم و اجبهاتها في كل من الحالين وذهبت إلى الهيكل للتطهير كالنساء العاديات وكانت تزور أورشليم كل سنة حسب عادة اليهود.

وفي ما عدا ذلك كانت تهتم بتدبير بيتها المتواضع. وكان يوسف، يساعده يسوع الشاب، بتدبير حاجات لأسرة. كانا يعملان سوية في دكان النجارة.

وبعد موت يوسف قام يسوع وحده بإعالة أمه. وليس في كل هذا ما يستلفت النظر أو يدعو إلى الإعجاب فلم يجد الإنجيلي ما يسجله، مدة عشرين سنة من حياة مريم، من أعجوبة أو عمل خارق أو حتى حادث بارز. فقال ببساطة: كان يسوع ينمو في السن والحكمة وكان خاضعًا لأبويه.

ولم يكن بين أقرب أقارب مريم ومعارفها من يعرف سر أمومتها الإلهية غير أسرة أليصابات. لم يكن إذن في تصرفها ما يدل على سامي مكانتها. ولقد اتخذها اليهود فيما بعد حجة ضد يسوع حينما قال إنه ابن الله. وكانوا يعتبرونها امرأة لا تتميز في شيء عن أفراد بيئتها ا لاجتماعية.

إننا لا نرى، قبل قيامة يسوع أن أخلص أصدقائه بما فيهم الرسل، كانوا يقدرون الكنز الذي يمتلكونه في شخص والدة الإله حق قدره. ولم تنفتح أعينهم إلا بعد حلول الروح القدس، فخصوا أرفع الخلائق وأحن الأمهات بخالص محبتهم البنوية. لقد رأى يسوع أن تكون حياة عذراء العذارى بسيطة وخفية لأنه أرادها مثالاً لحياتنا. فلم يشأ بأن يجنب أمه النقية رؤيته مصلوبًا ورضى بأن تقاسى الاضطهاد والألم المرير لأنه أراد أن يجعلها أم الأوجاع، وأكثر من شقي من الخلائق، حتى تكون لنا في أحزاننا وفي المصاعب الملازمة حياتنا على الأرض، مثال خضوع واستسلام.

الكلام الذي لفظته عند شعورها بأعظم فرح يمكن أن يخالج قلبًا بشريًا، رددته فيما بعد في خضم قلقها الهائل: "ليكن لي بحسب قولك". ففي هذه الكلمات القليلة كل سرها، كل قداستها: أنها بذل ذاتها التام لله، أنها أوفى استسلام لعنايته، أنها ارق واعظم محبة نحو ابنها وإلهها.

فيما أم الله، علمينا البساطة، أهلينا أن نرجع ونصير أطفالاً نتعلم منك كل خضوع وطاعة واستسلام لله ليكون سر حياتنا كلها، كما كان شأنك: محبة يسوع وعمل مشيئته وتقبل كل شيء من يديه.

وأما تبقى فيضمنه لنا يسوع كشفاعتك، أخذاً على عاتقه همومنا وأثقالنا ومتداركاً كل حاجاتنا ومنقذاً إيانا من كل المصاعب، وعلى الأخص: غافرًا لنا، على الدوام، عقوقنا وخطايانا.

نعم! إن كل حياتنا يجب أن تنحصر في شيء واحد: محبة الله والبوح له، بلا انقطاع، بهذه المحبة إلى أن تتم لها السيطرة على قلوبنا سيطرة تامة.